الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٦٩٩٦/٥٦٧٩٩

العدد ٢٤٣ — الثلاثاء ٢٣ من شعبان سنة ١٣٦٢ — ٢٤ من أغسطس سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العدد

بعد فتح صقلية

للدكتور محمد عوض محمد

كان القدماء يقضون السنين الطوال ، يحاربون من أجل السيادة في صقلية ، ثم ينقضي الأمر بأن يحتل فريق طرفاً من الجزيرة ، ويحتل الفريق الثاني جانباً آخر منها . في ذلك الوقت كانت جزيرة صقلية عالماً عظيماً ، وقطراً ضخماً ؛ وكان لا بد للجيوش من شهور لكي تقطع المسافات ، التي لا تحتاج اليوم إلا لبضع ساعات .

وكان الطامعون في الجزيرة في ذلك العهد يكتفون بأن يكون لهم نصيب منها ، ولأعدائهم نصيب ، ثم يجنحون إلى السلم فترة من الزمن ، إلى أن تتاح الفرصة لإشعال الحرب مرة أخرى .

ولكن صقلية لا ينظر إليها اليوم بأنها قطر ضخم — رغم غناها واتساعها — وليست مقصودة لذاتها ، وإنما هي اليوم عتبة ودرجة من سلم ، أو عتبة تعد منها الأقدام إلى داخل البيت . والاستيلاء عليها لا ينظر إليه إلا بأنه خطوة أو مرحلة من مراحل الحرب .

في هذه الحرب الصقلية التي لم تدم أكثر من بضعة وثلاثين يوما ، شهدت الجزيرة أحداثاً عجيبة ؛ لم تشهد الجزيرة في تاريخها الطويل أعجب منها ، على كثرة ما مر بها من الأحداث . وقد سبق للجزيرة أن كانت ميداناً للحرب بين الفينيقيين والرومان ، وبين العرب والروم ؛ وكان هذا في ذاته غريباً ؛ ولكن غرابته لا شك قد تلاشت لما شهدناه في هذه الأسابيع الأخيرة من حرب عجيبة ، يشترك في الهجوم فيها جيوش آتية من وراء المحيط الأطلسي ، قطعوا آلاف الأميال لكي يشتركوا في غزو جزيرة من جزر البحر المتوسط ، حاملين معهم عتادهم وآلاتهم وأسلحتهم ، وكثيراً من طعامهم وملاجئهم . ومن الجيوش

الأمريكية أفراداً أتوا من الجانب الشرقي من الولايات المتحدة ، وهؤلاء قد قطعوا نحو عشرة آلاف من الأميال ، لكي يقاتلوا في جزيرة صقلية .

هؤلاء هم الهاجمون ؛ أما المدافعون عن صقلية فقصتهم لا تقل غرابة . فإن القوات التي ثبتت طويلاً في ميدان قطانيا وفي حصن تروينا وبرندازو لم تكن الجيوش الإيطالية ، بل الجنود الألمان الذين جلبوا من شمال القارة الأوربية . وهكذا شهدت صقلية حرباً من أغرب الحروب التي مرت بها .

لقد تم للحلفاء فتح صقلية من أولها لآخرها في أقل من أربعين يوماً ، دخلوها في اليوم العاشر من يوليو ، ولم يكد الشهر أن ينقضي حتى كان أربعة أخماس الجزيرة في أيدي الجيوش المتحدة ، ولم يبق أمامهم سوى الركن الشمالي الشرقي ؛ وقد اشتد القتال حول هذا الركن الصغير ، ودافع عنه المحور دفاعاً مجيداً ، مع علمه أن المحور لا بد لها في النهاية أن تخلو من الجزيرة ، لأن الحرب الحديثة لا تسمح لقوة محاصرة أن تظل صامدة طويلاً . ولكن قيادة المحور أرادت أن تطيل الدفاع عن هذا الركن الأخير إلى أقصى حد ممكن ، لكي تؤخر وصول الحلفاء إلى مسينا بقدر الإمكان .

والآن وقد تم فتح صقلية ، وباتت الجزيرة كلها خاضعة لسلطان الدول المتحدة ، يجوز لنا الآن أن نحدث لكي نستخلص النقط البارزة التي امتازت بها هذه المرحلة من مراحل الحرب ، وننظر في التطورات التي تليها .

وأول ملاحظة تسترعي الانتباه أن غزو صقلية كان شيئاً يتوقعه جميع الناس ، منذ زوال قوة المحور في إفريقية في النصف الأول من شهر مايو الماضي . إذن كان غزو صقلية متوقعاً قبل حدوثه بشهرين . وفي أثناء الحرب الإفريقية نفسها كانت صقلية أهم مصدر لتموين قوات المحور في تونس ؛ فلا بد أن كانت الجزيرة ملأى بمعدات الحرب ، وقربها من الحدود المدد الكافي . ولئن كان هنالك نقص كبير في قوات الدفاع عنها ، فإن مهلة الشهرين كافية لاتخاذ الأهبة اللازمة لمقابلة غزو الحلفاء بما يستحقه من المقاومة العنيفة .

والجزيرة قطعة من الوطن الإيطالي ، وعلى اتصال مباشر بألمانيا ، فمن السهل إمدادها بالرجال والعتاد في مدة وجيزة ؛ بينما قوات الحلفاء يأتيها المدد والرجال من وراء المحيطات ، بعد قطع البحار الواسعة المعرضة لأخطار الغواصات والألغام ، وبعد كثير من النقل البري الطويل في شمال القارة الإفريقية .

فإذا كان غزو صقلية أمراً ينتظره الجميع ، وفي مستطاع دول المحور أن يعدوا الجزيرة بالقوة الدفاعية اللازمة لها ، فإن لنا الحق أن نعجب من أن قوات الحلفاء كانت ذات التفوق في البر والبحر والجو ، وأنها استولت على الجزيرة في هذه السرعة الفائقة ، وأن دول المحور في الحقيقة لم تحشد القوة اللازمة للدفاع عن الجزيرة .

ومن المعلوم أن طبيعة الجزيرة الجبلية تجعل الدفاع عنها أسهل بكثير من غزوها وفتحها . ولقد كان من الممكن أن الوقفة التي وقفتها جيوش المحور في الطرف الشمالي الشرقي يكون لها نظيرها في الجنوب وفي الغرب ، لو أن هنالك جيوشاً تقف في سبيل الغزاة .

ثم قيل في تبرير هذه الظاهرة أمور كثيرة ، منها : أن قيادة المحور لم تكن تنوي الاحتفاظ بصقلية ، وأن الخطة التي رسمتها منذ بداية الغزو هي إخلاء الجزيرة تدريجياً ، والسماح للحلفاء باحتلالها مع تأخير هذا الفتح إلى أقصى درجة ممكنة . وإذا صح هذا فإن قيادة المحور لها رأيها وهي أدرى بحاجتها منا . ولكنا نحن عامة الناس يحق لنا أن نعجب من التضحية بهذه الجزيرة العظيمة ، ذات الموقع الجغرافي والحربي المنقطع النظير ؛ ونحن مضطرون لأن نفترض أن المحور قد جلا عن صقلية لأنه كان

عاجزاً عن الاحتفاظ بها .

ويحق لنا بعد هذا أن نفكر في سر هذا العجز .

إن ألمانيا تواجه حرباً شعواء في شرق أوربا ؛ والمرة الأولى تقف أمام جيش روسي استطاع في فصل الصيف أن يبدأ بالهجوم ، وأن يستولي على مدن وحصون منيعة ، وأن يرد الجبهة الألمانية عشرات الأميال إلى الوراء . إن الميدان الروسي أخطر من الميدان الصقلي ؛ وإذا أصابت الجيوش الألمانية كارثة في الميدان الشرقي تعرض الوطن الألماني كله للخطر ؛ ولم يعنه أن تخسر إفريقية أو صقلية . ولقد أصيب الحليف المحوري بالهزيمة في إفريقية وفي صقلية فلم يكن لهذا نتيجة مباشرة على الوطن الألماني . ولكن إذا أتيح للروس أن يفوزوا بنصر آخر في جزء واحد من الميدان الشرقي ، أصبح الميدان كله بلا ريب ... [illegible] لم يكن بد من أن تكون عناية ألمانيا الأولى موجهة إلى الميدان الشرقي وإلى تقويته وتعزيزه بكل ما تملك [illegible] فضل من الجند والذخيرة والعتاد [illegible] احتياطية لهذا الميدان الخطير .

ولا بد لنا أن نستخلص من هذا أن ألمانيا في صيف هذا العام لم تكن تملك من القوات الاحتياطية ما يمكنها من إمداد الميدان الصقلي بحاجته من الجند ؛ ولهذا لم يكن بد من أن يكون اعتمادها الأكبر على الجيش الإيطالي ؛ وأن تكون القوة الجوية الألمانية بالقدر الضروري . ولقد اعتاد الناس أن يسخروا من الجيش الإيطالي ، وأن يصفوه بالضعف والعجز ؛ ولكن تصريحاً صدر من القائد الأعلى للجيوش المتحدة في الأسبوع الماضي يدل على أن في هذا الوصف شيئاً غير قليل من الإسراف . فقد قال الجنرال إيزنهاور : إن القوات الإيطالية التي كانت تغطي تراجع الجيش الألماني المتقهقر قد أبلت بلاء حسناً . والذي نستطيع أن نستخلصه من هذا ، أن الجندي الإيطالي لا تعوزه الصفات الحربية اللازمة ، بقدر ما تعوزه الرغبة الصادقة في متابعة هذه الحرب . فبالرغم مما ذكر عن موقف الجنود الإيطاليين التي أبلت بلاء حسناً في المرحلة الأخيرة من الحرب الصقلية ، فإنه لا بد من التسليم بأن الجيش الإيطالي بوجه عام لم يقم بدفاع شديد عن الجزيرة ، وأن كثيراً من الوحدات كانت تسلم من غير حرب ؛ وأنه لا بد لنا أن نخلص من هذا كله إلى نتيجة لا مفر منها ، وهي أن الجيش الإيطالي — كالشعب الإيطالي — قد أخذ يسأم الحرب ، ويزهد فيما قد وعد به من الغنائم ؛ وبات اليوم وأقصى أمانيه أن تضع الحرب أوزارها ، وأن ينعم بالسلم مرة أخرى .

إن هذه الروح موجودة في الجيش الإيطالي ولا شك في وجودها ، كما أنه لا شك في أنها آخذة في الزيادة والانتشار ، وقد زاد في توكيدها وانتشارها زوال الحكم الفاشستي ، واعتقاد الناس بأن الحرب شديدة الصلة بذلك الحكم ، وأن منطق الأشياء يقضي بأن تزول الحرب [illegible] هذه الحقيقة — وإن أغفلها رئيس الحكومة الإيطالية في الوقت الحاضر — فإنها ستكون من الأمور ذات الخطر في تقرير مجرى الحوادث في المستقبل .

* * *

وصفوة القول إذن أن الحلفاء قد تم لهم فتح صقلية بهذه السرعة لسببين : أولهما عجز ألمانيا عن إمداد الميدان الصقلي بالقوة الكافية ؛ والثاني فتور رغبة الجيش الإيطالي — أو جزء كبير منه — في متابعة الحرب . ويحق لنا أن نتساءل : إلى أي حد سيظل هذان السببان قائمين بحيث يؤثران في جميع تطورات الحرب المقبلة ؟

تقف جيوش الحلفاء الآن على مضيق مسينا ، لا يفصلهم عن أرض إيطاليا سوى مساحة ضيقة من الماء ، لا تزيد على الميلين في أضيق جزء من المضيق . والجزء المقابل لصقلية هو مقاطعة كالابريا ، وهي إقليم جبلي وعر ، ترتفع أرضه من ساحل البحر المقابل لمسينا ، فلا تلبث حتى تبلغ نحو ألفين

من الأمطار . وطرق المواصلات الوحيدة في هذا الأقليم تلازم الساحل الضيق بين البحر والجبل .

ومن المعلوم المشهور أن إيطاليا تمتد نحو الجنوب في شكل شبه جزيرة ، وطرفها الجنوبي يشبه النعل ؛ فكأن إيطاليا كلها عبارة رجل قد ألبست حذاء ضخماً ، ومقدمة الحذاء هو مقاطعة كالابريا القابلة لصقلية ، وكعب الحذاء هو مقاطعة أبوليا المشرفة على البحر الأدرياتي . وهذا الكعب طويل جداً ، بحيث يكون بينه وبين مقدمة الحذاء فراغ عظيم يحتله البحر في صورة خليج وهو خليج تارنتو ، حيث الميناء الحربي الشهير المسمى بهذا الاسم ؛ وحيث يقيم الشطر الأكبر من الأسطول الإيطالي .

والآن — وقد تم للحلفاء بسط سلطانهم على صقلية — قد أخذ الناس يتحدثون في الخطوة التالية ؛ فمن المحتمل أن يحاول الحلفاء عبور المضيق ، واحتلال الطرف الشرقي منه ؛ وكأنهم بهذا يتابعون حملتهم ويسيرون في نفس الطريق الذي سلكوه من قبل ، معتبرين ما دام ... ، هذا المضيق مجرد عقبة ، أو خندق لمقاتل الأعداء ... الوثوب فوقه .

غير أن الحالة أكثر تعقيداً من هذا ، فإن الاستيلاء على صقلية يتيح للفاتحين احتمالات عديدة . فهم ليسوا مضطرين لأن يهاجموا الطرف الجبلي من كالابريا ، وأمامهم جهات أخرى أكثر سهولة . وفي وسعهم أن يهاجموا أبوليا ، وهي أرض سهلة يمكنهم الاستيلاء عليها من التسلط على ميناء تارنتو وبرنديزي ، والتحكم في مدخل البحر الأدرياتي ؛ إذ ليس من شك في أن كعب الحذاء أجل فائدة وأعظم نفعاً من مقدمة الحذاء ذات الطبيعة الجبلية والمسالك الوعرة . كذلك في وسع الجيوش المتحدة أن تغير على سواحل إيطاليا الجنوبية ؛ وأن تحاول احتلال خليج سالرنو أو خليج نابولي نفسه ، أو خليج بوليكاسترو ؛ ولعل الاحتمال الأخير أقرب إلى الظن .

على أن الخطط الحربية قمينة بأن تخلف كل ظن ، وأن تأتي بما لم يكن متوقعاً . ولقد صادف فتح صقلية انعقاد مؤتمر خطير في أمريكا يشهده كبار سادة الحرب والسياسة من بريطانيين وأمريكيين . وأخذت الألسن تردد أن قرارات خطيرة لا تلبث أن تقطع ، وأن خطوات جليلة في الحرب الأوروبية توشك أن تتخذ . ولقد قيل في جملة ما قيل ، إن أهمية غزو إيطاليا قد نقصت عما كانت ، وأنه يكتفي بفتح صقلية والتحول إلى ميدان جديد ؛ وأشير إلى أن هذا الميدان هو غربي أوروبا . وليس يستبعد أن يحاول الحلفاء غزو أوروبا الغربية في هذا الخريف ، فإن حملة صقلية قد أكسبت جيوشهم خبرة جديدة ومراناً على هذا الضرب من الأعمال العسكرية . ولعل لديهم علماً بأمور أخرى تبرر التعجيل بهذا الغزو .

ولكن الأمر الذي يصعب قبوله أن يكون هذا الميدان الجديد سيلغى كل عمل آخر في جنوب إيطاليا ... الحلفاء إذا استطاعوا الاستيلاء على جنوب إيطاليا ، وقطع النظر عن سائر المملكة ، فإن هذا وحده يكسبهم منافع عظيمة جداً ، ليس أقلها خطراً تهديد شبه جزيرة البلقان ، والسيطرة على مدخل البحر الأدرياتي . . .

لهذا يصعب أن نتصور أن الحلفاء سيعدلون عن متابعة غزو إيطاليا اكتفاء بفتح ميدان جديد في مكان آخر ؛ بل الأقرب إلى الظن أنهم سيمضون في حملتهم الإيطالية التي لم تكن صقلية سوى المرحلة الأولى منها . وهذه المرحلة لا بد أن يفصلها عن المرحلة التالية فترة من الزمن . فبالرغم من أن مضيق مسينا قليل المساحة ، فإنه لا بد من مضي بعض الوقت ، لكي يتم فيه إصلاح المطارات القريبة من المضيق ، ولإصلاح ميناء مسينا نفسها ، والطرق الممتدة على شاطئ المضيق .

محمد عوض محمد

كفاح المـــوت

ترجمة الدكتور أحمد زكي بك

فقر الدم الخبيث

قلبٌ حسّاس، وتجارب غالية

وصل الثالث: طبيب شاب أمريكي اسمه «مينوت»، من آل «مينوت»، وهي أسرة شهيرة في الطب عريقة. وداء شقيناه هو فقر الدم الخبيث.

أما الداء فلا يعرف الأطباء له دواءً، ومع هذا يصفون له الأدوية على غير هدى لأن عليهم أن يصفوا شيئاً.

وأما الطبيب فقد تيسّر له في أهله العيش، وتيسرت له بهم السمعة الطيبة في الطب. ولكن القلب [illegible] بإضعاف [illegible]، ولكنها عوّدته شيئاً رغبة في [illegible] الضعف. وعوّدته شيئاً يستقل في الرأي أبى الخضوع لرأي لا يرضاه. وكان رأي الأطباء أن هذا الداء لا دواء له، فلم يرض هذا الرأي. [illegible] العلم، أرأى: أن من الأدواء أدواء [illegible] لا اليوم ولا غداً. فلم يبلغ هذا القول.

وأخذ يبحث تحت المجهر [illegible] فوجد أن دماءهم تحسن أحياناً لغير سبب ظاهر. ووجدها يجري في تلك الدماء كريات صغيرة غريبة، يصبغها باللون الأزرق، فيظهر نسيجها تحت المجهر شبكياً. فهذه كريات حمراء وليدة تزلف حديثاً إلى الدم، أنزلها مصنع الكريات الحمراء بالجسم — وهذا المصنع هو نخاع العظام.

وتزول هذا التحسن في المرضى لغير سبب فتخلو من الدم هذه الكريات الوليدة.

واشتغل مع عالم الأمراض، الدكتور «رِيت»، فكشف أن فقر الدم الخبيث ينشأ من فساد في نخاع العظام يجعلها تصنع كرات دم حمراء غير سوية. والآن إلى القراء:

وكان مينوت قد فتح عيادةً صغيرةً في بُسطُن. ومن العجيب أنه حسب أنه يستطيع في هذه العيادة الصغيرة أن يمتحن كل شيء، وكل أحد، في دقّة وفي تفصيل، وعلى حال كما يعمل في معمل بجامعة. والحق أنه هكذا كان مع كل مريض أتاه، من أي نوع كان، وغنيّاً كان أو فقيراً، حتى أملّ وأضجر. كان يطبّق أساليب العلم على مرضاه، وكان يسلك بهم طرائق العلم وهي طويلةٌ متعبة، كما كان يعمل بهم بالمستشفى العام بماساشوستس، أو كما عمل بهم في مدرسة الطب بجامعة هرڤرد. وكان يشغل عندئذ منصباً صغيراً بهذه المدرسة من هذه الجامعة. كان «مينوت» صديقاً حياً لمرضاه. كان ينظر إليهم نظره إلى حيوانات التجريب في معمل، ولكنه لم ينس قط أنهم أناسيّ من نسل آدم.

ويسأله مريض من مرضاه: «وهل تأذن لي في المشي والتنزّه قليلا يا دكتور؟».

فيجيبه الدكتور: «نعم لك أن تمشي حتى تأتي ساحل النهر ولا تتعدّاه. ثم لك أن تسير على النهر طولَ عطفتين، ثم تعود بأقصر طريق». ثم هو يجلس ليرسم على الورق أقصر طريق. ثم هو يكرّر للمريض: «بأقصر طريق، أفهمت؟». ثم تشعّ البسمةُ في عينيه الزرقاوين حتى [illegible]. وكانت له ذاكرة عجيبة يذكر بها [illegible] مرضاه — كيف ناموا، وما أكلوا، وأي الأشياء، ولو تافهة، تُدخل السرور إلى قلوبهم، ثم متاعبهم في أُسَرهم. عَلِمَ كل دقيقة من ذلك.

وظلّ على عنايته بالدم وكلّ داء يتسبّبه اختلالٌ فيه. ولفقر الدم نوعه الآخر غيرُ الخبيث، ويُعرف بفقر الدم الثانويّ، لأنه يكون نتيجةً لداء في الجسم أولّ أصليّ. وهذا النوع الثانويّ صنوف. فتبيّن نوفير «مينوت» على امتحان دماء مرضاه دائماً أبداً، صار داهيةً في تعرّف كل صنف من هذه الصنوف، أهو من نزف، أم من دودة شريطية، أم من سرطان، أم من زهريّ، أم من ملاريا، أم هو بسبب الحمل.

اجتمعت كل هذه الصنوف من فقر الدم الثانويّ في كومة، فاعلها تلك الكومة الهينة وقد احتوت صنفاً واحداً يعدل كلّ تلك الصنوف شرّاً — ذلك فقر الدم الخبيث الذي لا أمل فيه ولا رجاء في شفائه.

والتقى «مينوت» مع الدكتور «روجر لي» Roger Lee ، وهو طبيب قدير مجرّب ، فشكت إليه المرضى تسأله : «ألا يمكن عمل شيء يا دكتور؟ ألا يمكن شيء أبداً؟» . وكان من هؤلاء المرضى قوم ضعفوا حتى عن الطعام لم يستطيعوا أن يقدموا رجلاً على أخرى ، ومنهم من ضعفوا عن الكلام ، وكيف يتكلمون وألسنتهم موجعة متقرحة كقطع اللحم عراة . كانوا يحسّون الراحة ما بقوا في سكونهم وسكوتهم ، ولكنهم لا يلبثون أن يحسوا الضعف يتركهم متصاعقا .

ويجيبهم «مينوت» على ما يسألون : «نعم يمكن إجراء عملية إذا أنتم احتملتموها . ومع هذا لا نستطيع أن نعدكم شيئا . أتفهمون؟ لا نستطيع أن نوثقكم أملا» . ويتبين في عينيه وهو يتحدث مرارة ضعفه وأمانة قاسية .

وعلى هذا قام الجراحون [illegible] من تسعة عشر مريضا [illegible] الرضى [illegible] «لي» و«مينوت» — عام ١٩١٤ إلى ١٩١٧ [illegible] بالمبنية عن هؤلاء المرضى [illegible] ، وأخذ دمهم يزداد كثافة ، وأخذت أعضاؤهم تزداد قوة ، لتسعة أشهر أو لعام كامل . ورأى «مينوت» هؤلاء المرضى وزعمهم ، وهم لا طحال لهم . وأخذ يفحص دماءهم ، ويفحصها باحثا عن تلك الخلايا الدموية الجديدة الوليدة عالما من نظام شبكي يصطبغ أزرق تحت المجهر . وكثيراً ما رأى الكثير من تلك الخلايا بعد العملية مباشرة ، فانبسط أمله ، ولكنها لا تلبث أن تقل وتعود سيرتها الأولى . ويود لو يعيد العملية حتى تعود تلك الخلايا الجديدة الوليدة إلى الظهور منتشرة بالمجهر ، ولكن أنّى له أن يعيدها ، والمرء ليس له إلا طحال واحد . ثم يعود هؤلاء المرضى إلى زوال الحيل من حيث طلعوا ، ثم يموتون . لقد ماتوا جميعاً ، مات كل هؤلاء التسعة عشر .

كان وقع هذا شديداً على «مينوت» . وكان «مينوت» تميز آداب الطب عند أوثة المرضى ، ومارس حيل الأطباء جميعها في مجاملة مرضاه في دقة فائقة . تميز هذا الأدب ، وأخذ هذه الحيل ، عن الطبيب المعلم «ثاير» بلتيمور Thayer of Baltimore ، وهذا أخذها في دوره عن الحبر ولم أزل Osler نفسه . ولا شك أن أدب الطب وحيله تنفع المريض نفعاً كبيراً . ولا شك أن ابتسامة الطبيب تنير للمريض الطريق إلى الشفاء فتخفف من ظلامه . والطبيب يستطيع في التفريج عن المريض أن يذهب في هذا إلى حد البهجة الهادئة والنكتة المسرّة . إنها شخصية الطبيب تعين المريض عوناً كبيراً . ولكن المصيبة أن شخصية الطبيب وأدب الطب لم يرجعا دماء هؤلاء المرضى كثافة . وعمل «مينوت» على تكثيف [illegible] دمائهم ، ومن إنقاذها كثيفة بكل ما استطاع من قوة بدون جدوى . ولو كان [illegible] Osler المعلم ، إذن لاقترح [illegible] إلى الأدهان والتدليك ، إلى الأغذية الجيل بالقسم [illegible] جميعاً من كل هذا . ولكن [illegible] «مينوت» ؟

وأخذ هو وزميله روجر لي Roger Lee — ينقلان من دماء الأصحاء إلى دماء هؤلاء المرضى ، كما كان ينقل كثير غيرهم . واتفقا ما بين عام ١٩١٤ وعام ١٩١٧ سبعين نقلة من الدم الصحيح إلى ستة وأربعين مريضاً .

قال مينوت : «وتحسن نصف هؤلاء المرضى لبضعة أسابيع» .

ولكنهم أجمعين ماتوا جميعاً .

وعدّ «مينوت» هذا الإخفاق وصمة في شرفه . وعدّها لطمة لوجهه أن يموت كل هؤلاء . وقد كان طرق العادة في هذا ، في ما يلوم طبيباً إذا هو انتهى أخيراً إلى أن يتنكر لحساسيته عند موت مرضاه .

ورأى مينوت أن نقل الدم لا يكشف دم هؤلاء الضعفاء ، ومع هذا ظل ينقل هذا الدم لغير وعنى .

قال مينوت : «لا بد من نقل الدم حتى ولو ظهر أن

من مذكرات جحا :

الأديب عجيب بن جحا

للأديب الكبير صاحب التوقيع

[والتبعة على صاحب التوقيع الذي زعم أنه جحا بن الأديب الكبير جحا نفسه ....]

ولدي عجيب من تلاميذ العصر الحديث الذين يعتقدون أنهم نشأة عهد الهدم وذكاء وعلم ؟ وهو مثل إخوانه وأبناء جيله ، يسيئون الظن بجيل آبائهم بقدر إحسانهم ظنهم بأنفسهم . ولم لا يفعلون وذلك أمر تقضي به سنة الكون منذ خلق الله الناس جيلاً بعد جيل ؟ كل جيل يبدأ في تحصيل المعرفة ، فيظن أنه قد أوجد التجارب بنفسه ، وكل منهم يذوق أول طعم تجارب الحياة ، فيكون كل شيء عنده جديداً ، فيحسب أنه قد كشف دنيا جديداً لا عهد لأحد به من قبله ؛ فلم لا يكون ابني كذلك ؟ لست ألومه على مثل هذا الوهم ، فهو أمر طبيعي ؛ وكلما رأيته منتفخاً بأوهامه تبسمت وتذكرت أحوالي إذ كنت في مثل سنه ، وأرد له الدين الذي كان لأبي في عنقي . هكذا نحن نستمد ديون الآباء للأبناء .

ولو كان عجيب ابني يكتفي بسوء ظنه بالجيل القديم لوافقته واستحسنت سمته ، فقد عاشرت هذا الجيل القديم وعرفته معرفة لم تتح لابني ، وكلما مرت بي الأيام زاد يقيني أن هذا الجيل القديم خلقة شاذة ، وما أبرئ نفسي فأنا كذلك خلقة شاذة ؛ بل لعلي بلغت في الشذوذ عن الطبائع إلى الذروة ، فأنا شاذ في جيل شاذ . ولكن الداهية أن ابني يحسن الظن بنفسه وبأهل زمنه ، على حين أني لا أرى إلا زمرة منحصرة في التخليط والخبط ؛ وقد وقع ابني فيما يسميه الأدب ، واستهتر به استهتاراً حتى بلغ به الأمر أن اشترى قاموساً صغيراً وضعه في جيبه !

تقول لا إبلال من الداء ، فإن كثيراً من المرضى عليهم الهم الثقيل ما أوصلنا قوله » .

والله وحده يعلم كيف استطاع أن يثابر على عمله ، وهو يعلم أنه الأمل الخائب ، وأن هؤلاء الناس ميتون ميتون .

لقد بعث كل ساعة في الطب عنده ذلك أن هؤلاء المرضى لا أمل لهم في الحياة . وقد كان في إمكان « مينوت » أن يتخذ من أزلر قدوة يخفف به من شدة تأثره لموت هؤلاء المرضى . ومن أزلر ؟ إنه أبقراط الطب . قال أزلر :

« إن من الأدواء أدواء لم يكن منها قط شفاء ، ولن يكون لها على ما نحسب أبداً دواء ؛ فهذه الأدواء تجعل من بعضنا نحن الأطباء رجالاً حساسين ، يرخون العنان لمشاعرهم حتى تدق وترق ، فيتألمون حتى كأنهم من حياة البرية مسئولون » .

قال أزلر هذا في خطابه الشهير عن علاج الأمراض في طور طرق في يونيه عام ١٩٠٩ .

وفي خطابه قال : « إننا معشر الأطباء نعمل بطريقة فيها لا سحر الساحرين . وما دمنا نبذل لمرضانا كل عناية ، ونرعاهم في رفق كل رعاية ، ونعمل ما في وسعنا لتخفيف آلامهم ... » .

وبالطبع « مينوت » لم يكن يؤمن بالسحر والساحرين ، ولم يكن يؤمن بالخرافات ، وكان طبيباً عريقاً . ولكنه كان حساساً .

وقال أزلر : « واحذروا أهل الطب أن تتنزلوا له ، أو تسيئوا إلى سمعته بما تبذلون من وعود بالشفاء لا يبذلها إلا الأدعياء ، أو بما تسومون أنفسكم فيه من التلق في علاجات داءات اجتمع الرأي على أنها لا تلين ولا ترحم » .

لقد علم « مينوت » أكثر من كل أحد أن هذا الهم الخبيث لا يلين ولا يرحم ، ولم يكن في الطب دعيّاً ، ولم يبذل وعداً بالشفاء يبذله الأدعياء . ولكنه ، مع كل هذا ، لم يستطع أن يروض نفسه على ألا تحس الألم كلما مات له مريض بهذا الداء .

أحمد زكي

وكلما وجد فراغاً من وقته فتحه وأخذ يحفظ من ألفاظه كل ما شذَّ واستهجن ، ثم تعوَّد بعد ذلك أن يستعمل هذه الألفاظ فى كتابته ومناقشاته ! وزاد به الأمر حتى دبَّج بعبارات يجمعها فى قراءته من كل ما هبَّ ودبَّ من كتب هؤلاء المساكين المخدوعين ، الذين يحسبون أن الأدب لا يزيد على أن يطمسوا الصور ويلقوا على الألفاظ سحباً سوداء من الغموض ، فيضطر القارئ الذى لم يدرك لقولهم معنى أن يتهم فهمه ، ويدفعه اليأس إلى التسليم بأنهم نوابغ فى الأدب ! وطالما صدع رأسى بما يقذفه عليه من عبارات هؤلاء البائسين ! وطالما سمعته يتغنى بالضوء الذى يداعب أعطاف الماء ، وبالنشوة التى تمشى فى الظلال الراقصة ، والسحر الذى يتموج فوق جمال النهضات اللانهائية !! وكنت منذ ليال قلائل جالساً وحدى فى الحديقة أتمتع بضوء القمر الزاهى ، فسمعته يتغنى بأبيات مما يسمونه شعراً [illegible] غنائه وإنشاده ، لأن الليل كان [illegible] تخبيج أحس فيه ؛ ولا أزال إلى اليوم أتذكر كلما مرت هذه الأغنية بخاطرى وعادت أصداؤها إلى ذاكرتى . كانت شيئاً لا معنى له ولا وزن ! ووالله لو كان ذلك شعراً لاستطاعت كل هرة أن تكون شاعرة ! كان يتغنى قائلا شيئاً مثل هذا :

الشجر والطير والسحاب والنور والحب والضباب

فلما زاد فى الألم على قدر طاقتى هممت به أن يسكت ، ولكنه أقبل نحوى فى حماسة شديدة ، وجعل يرجعى رجّاً متصلا بإنشاده ، حتى أوشكت أن يغمى علىّ .

من أجل كل هذا عُرف صاحبى الممسوخ بالأدب بين لداته ؛ وتمكن منه الوهم فاعتقد أنه أديب وهب الله له من فضله ، وجعل يسألنى عن أسماء شياطين الشعراء ليختار له واحداً من بينهم ظريف الاسم كريم السابقة .

وكثيراً ما أفضى إلىّ بأمله فى أن يكون كبير الأدباء فى جيله ، فتأخذنى الشفقة عليه ، فأهز رأسى صامتاً وأتركه يقول ما يشاء ، فالزمن وحده هو الكفيل بحل كل مشاكل الحياة ؛ ولا فائدة فى المناقشات ، لأن تيار الحياة يحمل الإنسان فى سبيله كما يريد هو لا كما يريد الإنسان . ولست أدرى لعله حقيقة يصير إلى ما أراد ، ويتحقق أمله فى أن يصبح كبير أدباء عصره ، فإن الزمن — كما قلت — صائر إلى فساد بعد فساد ؛ فلعل هذا الأدب الممسوخ يكون فى العصر المقبل آية الإبداع فى أنظار أبنائه ؛ والعبرة بأهل ذلك الزمان لا بنا نحن — ومع ذلك فإنى لم أتمالك نفسى يوماً من أن أخوض مع ولدى فى مناقشة صاخبة ، عند ما سمعته يتحدث عن الأدب فى حماسة حمقاء ، فقد قلت له عند ذلك ناصحاً :

— ماذا تريد من ذلك الذى تسميه الأدب ؟ حقاً أن [illegible] لكم بعض الأبناء ، لأنكم دائماً تسمعون [illegible] الأدب [illegible] ؛ ولكن الأدب الذى تقصده [illegible]

فقال لى غاضباً :

— أتظننى لا أعرف معنى الأدب ؟ إنى أعرف من عظماء الأدباء أكثر مما تظن .

فضحكت وقلت له :

— عظماء ! يا عمر !

فقال وقد نفد صبره :

— بلا شك ! عظماء وخالدون أيضاً ، وسأكون أحد الخالدين .

فقلت له :

— إذن مت جوعاً .

وما كان أشد عجبى عند ما سمعته يجيب متلذذاً :

— وماذا علىّ لو مت ؟ إنها ضريبة العظمة ، إنها ثمن الخلود .

فنظرت إليه طويلا ، وهززت رأسى آسفاً . وكان

أسفى شديداً ، لأنى أنا والد هذا الفتى الذى جنيت له بغير قصد أن يوجد فى هذه الحياة .

ولست أدرى من ذا الذى بث مثل هذه الأوهام فى عقول هؤلاء المساكين ؟ أم لعل هذه الأوهام نبتت فى الرؤوس بغير أن يلقى أحد بذورها كما تنبت الحشائش على جانبى الساقى .

أما إذا كان لا بد من إلقاء التبعة على أحد ، فإن هذه الخديعة البارعة لم يقترفها إلا تجار الكتب ، فإنهم بلا شك يخشون أن يتفتق الحق بهذه المعانى الجوفاء ، ومن مصلحتهم أن تشيع بين الناس مثل هذه العقيدة . يا خبرا عظيما ! مَن هؤلاء العظماء ، وما معنى عظمتهم ؟ إن نصف أصحاب هذه الأسماء التى تملأ كتب الأدب قد ماتوا جوعاً ، لأنهم ألقوا ما لم يفهمه أحد فى عصرهم ، وتركوا [illegible] الجواهر إلى خزاود النقد . هؤلاء ماتوا جوعاً ، وكان حقاً عليهم أن ينتهوا إلى تلك النهاية الرهيبة [illegible] عزاء قليل لهم أن يقال عنهم بعد موتهم إنهم عظماء ، وإذا كان أحد يجنى ثمرة من تقديسهم بعد الموت فهم تجار الكتب . هذا أمر بديهى .

وأما النصف الثانى من أصحاب هذه الأسماء ، فهو جماعة تسنّموا الناس فى الحياة ، لأنهم كانوا تجاراً مهرة ، عرفوا كيف يبيعون للناس ، وكيف يضحكون على ذقونهم . وهؤلاء قد أنصفوا أنفسهم بغير شك ، ولست أضن عليهم بالإعجاب والإكبار ، ولكنهم على أى حال لم يكونوا عظماء ، ولم يعبأوا بمثل هذه الألقاب السخيفة التى تخدع الأغرار . فقد تطفلوا على الحياة كما يتطفل الطفيليون من الولائم ، ثم خرجوا بعد أن أصابوا من أطايبها ، وهم مشيَّعون بالغيظ والسخرية . ولكنهم خرجوا أسعد خلق الله وأحبهم وأطيبهم نفساً .

نسيت أن أذكر السبب الذى دعانى إلى كتابة هذه الكلمة اليوم ؛ فقد مر بى ولدى محبوب وأنا جالس فى الحديقة عند الساقية ، وكان يقرأ فى قاموسه ، ولما قرب منى نظر إلىّ باسماً ابتسامة خبيثة ، ولكنها كانت حلوة فى خبثها . وكان فى هذا اليوم رفيقاً بى ، فلم يحرج علىّ ، ولم ينشد لى شيئاً من محفوظه ولا من تأليفه . ولما بعد عنى جلست وحدى وتواردت على خاطرى هذه المعانى التى أثبتُّها فى هذه الكلمة . وبعد حين جاء صديقى أبو النور فجلس إلى جوارى وأخذنا نتحدث ، ومال بنا السمر إلى ذكر ولدى وما أرجوه له من عمل فى مستقبل أيامه ؛ فأفضيت إلى صديقى بما يساورنى من المخاوف من أجل ما داخله من حب هذه الصناعة التى يسمونها الأدب . فسألنى أبو النور فى سذاجة :

— وهل فكرت له فى صناعة أجدى عليه ؟ فاندفعت قائلاً فى شىء من الغضب :

— ماذا تقول يا رجل ؟ لقد حسبتك أعلم بالحياة من ذلك . [illegible] صناعة أخرى وكل تجارة غير هذه الحرفة أجدى [illegible] لمستقبل . فليكن طبيباً إذا شاء ، فإنه سيكون شيئاً له شأن ، ولن يزاحمه إلا من كان له شىء من العلم بصناعة الطب ؛ فإن الناس يفتحون أعينهم ويسألون عن مبلغ علم الطبيب الذى يسلمون إليه أبدانهم ؛ أو فليكن فقيهاً ، فإنها تجارة رابحة رائجة ، ولن يزاحمه فيها إلا من كابد مشقة الحفظ وتحصيل العلم ؛ أو فليكن خبازاً ؛ فالناس لا يتحمسون بين الخبازين ، إذا لم يكونوا قادرين على صناعة الرغيف الطيب . فليكن أى شىء من هذا أو غير هذا ، لأنه عند ذلك يصبح صاحب حرفة محدودة معروفة ، لها قيود وعليها أسوار تحميها وتحصنها . ولكنى لا يطيب لى نفسه أن يدخل برجليه إلى تلك الرحلة الجوالة التى يسمونها صناعة الأدب .

وقد نسيت وأنا أقول هذا القول ، فحسبت أنى أحدث نفسى ولا يسمعنى أحد ، ولكنى شعرت بغمزة بقرصة فى ساعدى ، فتنبهت ، فإذا أبو النور يقول لى :

— أما تسمع ؟

سكتُّ وتلفتُّ حولي، فطرقت أذني صرخة مكتومة كأنها خارجة من بطن الأرض، فقمت مع صاحبي مسرعين، وجعلنا نركض باحثين عن مبعث الصوت في أنحاء الحديقة، فلم نجد شيئاً، والتهبت أجسامنا، وعدنا مرة أخرى إلى الساقية بعد أن درنا بالحديقة كلها، ووقفنا نلتقط أنفاسنا لحظة؛ وهممت أن أسأل صديقي عن رأيه في الأشباح التي ترتفع أصواتها في الليل هل يمكن أن تظهر في وضح النهار؟ وإذا بالصراخ المكتوم ينبعث مرة أخرى كأنه يصعد من تحت أقدامنا. فنظرت إلى صديقي قائلا:

— بسم الله الرحمن الرحيم!

ولكني رأيته يذهب إلى فتحة البئر التي تحت الساقية؛ فسرت وراءه، وأطللت برأسي، فماذا رأيت؟ هناك كان رأس ولدي يحيى فوق سطح ماء البئر، وهو يحاول أن يسند نفسه واضعاً يديه على الحائط [illegible] ويضرب رجليه في الماء، وسمعته يصيح:

— الوهس! الوهس! الوحي! الوحي! الجدار الصلصل يداعب كتفي، وسرات الماء يراود أغاني!

وكان يريد الاستمرار، فخشيت عليه وصحت به:

— اخرس! ماذا الوهس وماذا الوحي، وماذا يداعب، وماذا يراود؟

فرفع رأسه نحوي متحدياً وقال:

— لقد رأيت (الوهس) قبل سقوطي، ومعناه الجري السريع، وأما الوحي فمعناه العجل، وأما الجدار الصلصل الذي يداعب فهي عبارة رائعة نقلتها من الأديب الكبير.. وأراد أن يستمر فلم أدعه إلا أن صحت به:

— دع هذا وقل لي أين الحبل؟ أين الحبل الذي كان هنا على فتحة البئر؟

فقد أحس الولد الجد مني فقال في انكسار:

— هو الذي انقطع بي وأغرقني في تيه البئر... وكاد يستمر لولا أن صحت به مرة أخرى:

— اخرس!

ثم نظرت حولي لأجد شيئاً أنقذه به، فوقعت عيني على عمامة صديقي، فأسرعت فنزعتها من رأسه، وساعدني الرجل الطيب على أن أرمها؛ ثم دليناها إلى الولد حتى أمسك بطرفها، وتعاونّا على رفعه حتى أخرجناه من البئر وهو مثل القط الغارق.

وأخذ صديقي عمامته فنشرها وهو صامت، وأخذت ولدي إلى البيت خوفاً عليه من إصابة البرد، ودفعته إلى أمه قائلا:

— ألبسيه أخرى، واعتني به حتى لا يُفجَعُ الجيل الأدبي في كبير أدبائه!

ورجعت إلى صديقي فوجدته لا يزال يهز أطراف [illegible] أن تجف؛ فداخلني إشفاق عظيم [illegible] مرة:

— [illegible] لولا عمامتك لهلك كبير أدباء الجيل التالي.

ثم لم أدر ماذا حدث، ولكني رأيت الضحك يغلبني، وكان ضحكاً طويلاً مدوياً بلا شك؛ فما مضت لحظة حتى كان أبو النور يضحك ضحكاً طويلاً مثله، وهو لا يزال يهز أطراف عمامته بيديه لكي تجف.

طبق الأصل [illegible]

نرجو من حضرات مشتركي مجلة الثقافة أن يبادروا بتسديد الباقي عليهم من اشتراكات سنة ١٩٤٣ بأقرب فرصة ممكنة.

الإدارة

مأساة بيير كورى[1]
مكتشف معدن الراديوم

بدأ يوم الخميس ١٩ أبريل ١٩٠٦ مكفهراً عابساً ممطراً . وكان برنامج بيير كورى اليومى يتلخص فى حضور مأدبة غداء فى مقر اتحاد أساتذة كلية العلوم بباريس ، ثم الذهاب إلى ناشرى كتبه لتصحيح بعض المسودات قبل أن ينتهى به المطاف كعادته اليومية إلى معهد الراديوم ليواصل أبحاثه .

ارتدى بيير ملابسه فى عجلة وأسرع نحو الباب ، وقبل خروجه نادى زوجته مارى — وكانت فى الطابق العلوى تساعد ابنتيها إيرين وإيف على ارتداء ملابسهما — وسألها إذا كان فى نيتها الذهاب إلى المعمل ، فأجابته بصوت غلبت عليه ضوضاء الشارع : إنها لن تتمكن فى الغالب . ثم سمعت الباب يقفل بشدة ، وسمعت خطواته تجرى على عجل كعادته .

وقضى بيير فترة الغداء مع زملائه الأساتذة فى مطعمهم بشارع دانتون ؛ وفى الساعة الثانية والنصف بالانصراف ، فودع أصدقاءه مبتسماً ، وسار نحو الشارع . ولما خرجه نظر إلى السماء المكفهرة فى ضيق ، ثم نشر مظلته الكبيرة ومشى فى أعماق السيل قاصداً دار جوتييه فيلار للطبع والنشر ، فوجدها مغلقة بسبب إضراب العمال ، فعرج على شارع « دوفين » الصاخب بضجيج عربات النقل وعربات الترام . وكان هذا الشارع مشهوراً بزحامه غير العادى ، وكان رصيفه ضيقاً بدرجة لا تسمح بمرور أكثر من صف واحد من المارة فى وقت واحد ؛ فكان بيير يسير أحياناً على الرصيف وأحياناً ينزل إلى عرض الشارع فى خطى مضطربة غير ثابتة ؛ ولعله كان فى ذلك الوقت يفكر فى إحدى تجاربه ، فكان يخبط فى هذا البحر الخضم من الكتل البشرية والآلية . وإذ هو فى هذا الشرود الفكرى حاول أن يعبر الطريق للوصول إلى الرصيف الآخر ، فلم يلق بالاً إلى عربة نقل كبيرة يجرها حصانان آتية من الجانب الآخر ، فاصطدم بيير بأحد الحصانين ؛ ولما أفاق من دهشته حاول أن يتعلق بصدر الحصان ليتفادى الوقوع تحته ، ولكن الصدمة كانت أشد من أن تمكنه من ذلك ، ورغم محاولة السائق اليائسة إيقاف حصانيه ، فقد استمر الأخيران فى اندفاعهما ، وصاح عشرات المارة فى فزع أن « قف ! قف ! » . ولكن هيهات ! لقد وقع بيير تحت سنابك الخيل .

ومرت عليه الخيل ، ولكنه لم يمس بأى سوء ، بل بقى فى مكانه لا يتحرك ولا يصرخ ؛ وكان يمكن المعجزة أن تحدث وينجو عالمنا ، لولا أن اندفاع العربة بحملها الثقيل الذى يبلغ أطناناً عجل بالنهاية المحزنة ؛ فقد صادفت العجلة اليسرى الخلفية رأس بيير كورى فحطمتها بسهولة ، [illegible] وتكسرت عظام الجمجمة ، [illegible] مادة رجراجة هى مخ بيير كورى !

وأسرع رجال الشرطة يحملون الجثة الهامدة التى انتزعت منها الحياة فى أقل من لمح البصر ، وحاولوا إيقاف إحدى العربات لحمله إلى أقرب مراكز إسعاف ، ولكن كل السائقين أظهروا عدم اكتراث واستمروا فى سيرهم عندما رأوا أن جثة رجل عارية فى دمائه وملوثاً بأوحال الطريق هى الحمل المنتظر ! ومرت الدقائق ، وأخذت الناس تتجمع حول الجثة وحول العربة وسائقها المسئول عن الحادث . وأخيراً أحضر رجلان نقالة ، وحملت الجثة إلى أقرب صيدلية لإجراء إسعافات غير لازمة ، ثم نقلت بعد ذلك إلى مركز الشرطة المجاور ، وهناك فحصت أوراقه وحافظة نقوده . ولما انتشر بين الجموع أن ضحية الحادث هو بيير كورى العالم الكبير ، ثارت الجماهير المجتمعة على السائق تريد الاعتداء عليه ، فاضطر رجال الشرطة إلى التدخل لحمايته من غضبهم .

وأخطرت كلية العلوم بالحادث تليفونياً ، فجرى إلى

(١) مقتبسة من كتاب « مدام كورى » تأليف إيف كورى . ويرجع لآل كورى الفضل فى اكتشاف معدن الراديوم النفيس الذى ثبتت فائدته فى علاج السرطان وأمراض أخرى مستعصية .

مكان الحادث المسيو كليرك ، مساعد المسيو كوري . وبعد لحظة كان جثمان الفقيد مسجى في غرفة متواضعة بمركز الشرطة ، وقد انحنى أمامها المسيو كليرك وهو ينتحب ، ووقف مابين سائق العربة يبكي ، بينما بقيت العربة الثقيلة بحمولتها المكونة من الملابس العسكرية عند باب المركز ، واستمر هطول المطر عليها حتى أزيل آخر الدماء من عجلاتها ؛ وأخذت الخيل تضرب الأرض بحوافرها وتنفخ بمناخرها في قلق وخوف ، وكأنها تستعجل صاحبها الذي طال غيابه داخل المركز !

وذهب مندوب من رئيس الجمهورية الفرنسية إلى منزل آل كوري ليبلغ الخبر وعزاء الرئيس إلى مارى كوري ، ولما علم أنها لم تعد إلى البيت بعد ، انصرف دون أن يترك رسالته . وبعد قليل دق الجرس مرة ثانية ، وإذا بالزائرين جون أبيل عميد كلية العلوم والأستاذ جان بيرين ؛ وكان الدكتور أوجين كوري — والد [illegible] — بالمنزل وحده ، فدهش لتردد هؤلاء الزوار [illegible] على غير عادة في فترة وجيزة ، فتقدم [illegible] عينيه في وجهيهما المكفهر ؛ وكان في [illegible] أن يخبرا مارى زوجة الفقيد أولا ، فوقفا صامتا عند ماعلى [illegible] . ولكن الوالد مضى ينظر إليهما ، وبدون أن سألهما أي سؤال قال : « لقد مات ولدي . . . أليس كذلك » ؟ وعندها أخذ جون أبيل يسرد تفاصيل الحادث في حزن ؛ وكان الوالد يستمع إليه وقد تقطب جبينه حزناً وغضباً ، وامتزجت في عينيه دموع الأسى بدموع اليأس عند ما صاح منهما أنه بشرود الفكر الذي كلفه حياته ، وأخذ يكرر في لهجة العتاب : « ماذا ترى يا ولدي فيم كنت تفكر !! » .

وفي تمام الساعة السادسة سمع صوت مفتاح الباب الخارجي يدور في قفله ، وإذا بمارى كوري تعود من الخارج وهي ممتلئة مرحا وحيوية . ووقفت عند عتبة الباب تنظر إلى زائريها متعجبة لأمارات الحزن والكآبة البادية على وجوه الحاضرين ، وهي لم تعهد فيهم من قبل غير الترحيب والخفة . وقبل أن تحاول استيضاح حقيقة الموقف أخذ جون أبيل يكرر على مسمعها تفاصيل الحادث ، وكانت تنصت إليه وقد تحجر وجهها ، فلم تبك ولم تولول ، ولم تسقط على الأرض من هول الصدمة ، بل بقيت صامتة في ذهول ؛ وبعد صمت طويل انفرجت شفتاها وقالت في صوت خافت : « بيير مات . . . حقا . . . ؟ » ، ثم أخذت تفيق تدريجاً ، وفي لهجة آلية طلبت أن يحضروا جثمان زوجها في الحال إلى منزله ووصفت إجراء الصفة التشريحية ؛ ثم رجت جارتها مدام بيرين أن تستبقي ابنتها إيرين كوري عندها لبضعة أيام . وأرسلت برقية إلى وارسو تخطر أهلها بمصابها ، وكانت البرقية قصيرة ونصها : « مات بيير نتيجة حادث » ! ثم خرجت إلى الحديقة وجلست وقد أسندت رأسها بين يديها ونظرت إلى الباب في صمت وألم منتظرة وصول رفيق حياتها ...

[illegible] أولا الأشياء التي وجدت في جيب زوجها ، [illegible] ، وبضعة مفاتيح ، و[illegible] ، [illegible] ، وكانت تدق دقا منتظما . وفي الساعة الثامنة [illegible] عند الباب عربة الإسعاف ، فخرجت مارى نحوها لتستقبله ونظرت في الظلام إلى الوجه الهادئ الطيب ! ثم ساعدت على إنزال الجثة من العربة واحتجزتها في غرفة منعزلة ، وطلبت ممن حولها أن يتركوها وحدها مع حبيبها . ولما تم لها ما أرادت أخذت في تقبيله ، فبدأت بوجهه ثم جسمه ثم يديه . وخاف من حولها عليها من أثر الصدمة واقتحموا نحوها يريدون إخراجها ليشرعوا في إلباس الفقيد ملابسه الأخيرة ، فأطاعتهم في مبدأ الأمر ، وخرجت من الغرفة ولكنها سرعان ما عادت ثانية وصممت على القيام بحاجاته ، حتى لا تسمح لأحد غيرها أن يمس رفاته الطاهر .

وفي اليوم التالي وصل جاك كوري شقيق الفقيد ، وعندها فقط انفجرت ينابيع الدموع من مآقيها المتحجرة ، وانطلقت تبكي بكاء مراً ، ثم استعادت هدوءها وسكينتها ، وبدأت تجوب في المنزل سائلة إذا كانت ابنتها إيرين قد

غسلت وجهها وتناولت طعام الإفطار . ثم خرجت إلى حديقة منزل الأستاذ بوزن المجاورة ، وهناك وجدت ابنتها إيرين تلعب وتلهو ، فأخبرتها أن والدها قد أصيب في رأسه إصابة بالغة ، وأنه سيحتاج إلى راحة طويلة ؛ فمضت الطفلة في لعبها دون أن تبدى أى اهتمام بما قالته والدتها .

وهنا نقتبس بعض مقتطفات من مذكرات مدام كورى وفيها تصف بقية هذا الموقف المؤلم :

« ... لقد وضعناك في تابوتك يا حبيبي في صباح السبت ، وقد ساعدت في هذا بأن أمسكت رأسك بين يدي ... رأسك الذي تحطم ... آه يا حبيبي كم قاسيت في تلك الحادثة المشؤومة التي مت فيها ... عز على أن يمس هذا الرأس الجميل الذي طالما أحببته بين يدي ... وكنت كلما حاولت تقبيل جبهتك أحسست ميلك في حركة عفوية لتمكني من ذلك ... وعندما أودعناك في التابوت تبادلنا جميعاً على تقبيل وجهك القبلة الأخيرة ، ثم أودعت نعشك صورتي التي كنت تحبها [illegible] الأخير ... وأخيراً أقفل التابوت واختفيت عني إلى الأبد .. ولما حاولوا تغطيته بقماش أسود وضعت في [illegible] وغطيته بالأزهار التي كنت تحبها . وجلست بجانبك حتى أتوا ليأخذوك مني ، فنظرت إليهم في يأس ولم أتكلم ، بل رافقتهم إلى مقرك الأخير . وهناك حاولوا إبعادي لكي لا أرى المنظر المؤلم ، وصممت على أن أبقى حتى الدقيقة الأخيرة ... حتى أنزلوك في تلك الحفرة العميقة ... وعندما انتهى كل شيء ، ذهب بيير إلى الأبد ..

وبعد الحادثة بأيام كانت شقيقتها (برونيا) تتأهب للرحيل بعد أن قامت بواجب التعزية والمواساة ، فاقتربت منها ماري وأشارت إليها أن تتبعها غرفة نومها الخاصة ؛ وهناك دهشت برونيا إذ وجدت نار الموقد مشتعلة رغم حرارة الجو . وبعد أن تأكدت ماري من أن الباب مغلق اتجهت نحو دولاب ملابسها وأخرجت حزمة من الملابس ، ثم جلست بجانب النار وطلبت من شقيقتها أن تجلس جنبها . وأمسكت بمقص كبير وأخذت وهي تحاول فتح الحزمة قائلة : « برونيا .. يجب أن تساعديني .. » . ولما أزالت الورق الخارجي كادت برونيا أن تصرخ من شدة الهول ، إذ تبين لها أن ما بالربطة لم يكن سوى ملابس بيير الداخلية والخارجية الملوثة بالدم والوحل نتيجة حادث شارع دوفين المشؤوم ... لم تنبس برونيا ببنت شفة ؛ بل أخذت تراقب يدي شقيقتها المرتعشتين وهما تقطعان الملابس إلى قطع صغيرة تلقيها في النيران حيث تحترق وتختفي . ولما صادفت ماري بقايا مخ زوجها العالقة بالملابس توقفت عن عملها ، وأدنت القماش من فمها وأخذت تقبل بحرارة تلك البقايا التي أخرجت في يوم ما للعالم أعظم الاختراعات وأبدع التفكير ، وكانت تقبلها بيأس ظاهر ؛ فانتزعت برونيا منها المقص وبقية الملابس ، وأجرت عملية التقطيع بسرعة ، وقامت النيران المشتعلة بإزالة كل آثار الحادث الحزين ..!

ولما انتهى كل شيء ، نهضت ماري وألقت بنفسها بين ذراعي برونيا وأخذت في البكاء والنحيب ، وقالت متسائلة : « [illegible] برونيا كيف يمكنني أن أعيش بعد الآن ... وأنا وحيدة في هذا العالم . » ! فهدأت برونيا من حزنها وأرغمتها [illegible] متعبة ، وساعدتها على خلع ملابس النهار وارتداء ملابس النوم ، وبقيت بجانبها حتى استغرقت في النوم ..

ولكن ماري كورى لم تكن وحيدة ... فهناك أصدقاؤها وأصدقاء زوجها الكثيرون ... لقد هبوا جميعاً لمساعدتها والعمل على تعيينها في كرسي الأستاذية الذي خلا بوفاة زوجها . وكان هذا مخالفاً للتقاليد في ذلك الوقت ، إذ لم يسبق تعيين سيدة في منصب أستاذ بجامعة السوربون ؛ ولكن السلطات تغلبت أخيراً على هذه العقبة ، وتقرر يوم الاثنين ٥ نوفمبر سنة ١٩٠٦ كموعد إلقاء محاضرتها الأولى ؛ وكان المدرج غاصاً على سعته بالأساتذة والطلبة ومندوبي الجرائد وسيدات ورجال من جميع الطبقات ، وقد أتوا جميعاً ليشاهدوا « الأرملة العظيمة » وليس ليستمعوا إلى دقائق معدن الراديوم وفلسفته .

في هوامش «ضحى الإسلام»

النقيب أبو جعفر يحيى ابن أبي زيد

كل من قرأ الجزء الثالث من كتاب «ضحى الإسلام» لشيخنا العلامة الأستاذ أحمد أمين بك ، مر في حاشية الصفحة الثانية والثالثة بالحديث عنه باسم غير معروف في كتب هذا العصر ، ولا مفصل تاريخه فيما مضى من الدهر ، هو «النقيب أبو جعفر» ؛ وإليه أشار شيخنا مؤلف الضحى بقوله : «هذا مختصر من أقوال أبي جعفر النقيب ، حكاه بطوله ابن أبي الحديد (عز الدين عبد الحميد) في نهج البلاغة ٤ : ٤٥٤ وما بعدها» . ومن يرجع إلى مظنة ذلك من شرح نهج البلاغة يحصل مؤلفه قوله في خلال كلامه ما هذا نصه : «وحضرت عند النقيب أبي جعفر يحيى بن محمد العلوي البصري سنة إحدى عشرة وستمائة ببغداد وعنده جماعة وأحد [illegible] أبي الفرج ... [1] ... [illegible] فيه بعضهم وأبى عنه بعضهم و [illegible]

(١) في المطبوع ٤ : ٤٥٣ [illegible]

وما يخطر هؤلاء ظهورها كانت ماري وتقدة ... قد زوجها لشابة بصوت خافت ؛ ثم عادت إلى الجامعة ودخلت المدرج في الساعة الواحدة والدقيقة الثلاثين ، فتمرأت الأعناق وتهامس الموجودون ، ثم سوت القاعة هدأة بتصفيق حاد أجابت عليه ماري بإحناء خفيفة من رأسها ، وعمدت إلى طاولة صفت عليها عدد الأجهزة ، ثم عادت إلى الحاضرين في هدوء وبدأت محاضرتها بالكلمات الآتية :

«كلما فكرنا في التقدم المطرد الذي فازت به العلوم الطبيعية في السنوات العشر الأخيرة أدركنا التطورات التي طرأت على فن الكهرباء والمادة ... »

وهي الكلمات التي انتهى إليها بيير كوري في آخر محاضرة ألقاها قبل موته الفاجع ...

دكتور مصطفى الدرجاني

فالنقيب أبو جعفر بن أبي زيد البصري كان أستاذ ابن أبي الحديد وغيره من العلماء والأدباء ، وإذا كان القياس بين الأستاذ وتلميذه ، والفقيه وصاحبه ، والعالم وطلابه[1] ، يخلو في حيز الإمكان ، مؤدياً في الأحيان إلى المقارنة بينهما والمساواة ، علمنا بعض العلم ما كان عليه شيخ ابن أبي الحديد من الاتساع في الأدب والفقه والكلام والأخبار والأنساب ، وسعة الرواية وبراعة الدراية ؛ لأن شرح نهج البلاغة دائرة معارف ، ورياض آداب ، وكنوز أخبار ، ومركز بلاغة ، ومعين محاضرات ، ومظنة ثقافة إسلامية وعربية ؛ وقد يكون أنه أحسن كتاب تركته الدولة العباسية في آخر عصورها ، وأكمل شرح لذلك الكتاب الفخم ، أعني نهج البلاغة معجزة العربية .

[illegible] هذا النقيب أبو جعفر يحيى بن أبي زيد ؟ [illegible] [illegible] الأدب الأخباري النسابة الذي كانت داره [illegible] الأدباء والفضلاء ، والطالبين لقراءة كتب [illegible] الذي كان حياً في سنة ٦١١ هـ [illegible] الثقافة والدين والسياسة [illegible] لا عازمون على أن يسعد القراء [illegible] ترجمة هذا الرجل الكبير الإمام الخطير ، وفي عصره الذي ازدهر في كل أسباب الحياة والعلوم ؛ ويسعد الذي يهمه معرفة الثقافة الإسلامية العربية في العصور المنسية ، ما يصعب إلى الفوائد استمتاعاً ، وإلى الاطلاع اتساعاً ؛ ولسنا من المستبهمة إلا لقلة الاطلاع عليها ، وندرة التحدث بأخبارها وأسرارها ، فنحن مختصون بتاريخ العراق ومحققون لتراجم المشاهير من رجاله ، ونرى خدمة عظيمة للثقافة العربية الإسلامية في الإبانة عن حقيقة ذلك الفهامة العلامة ، الذي كان ركناً من أركان المعارف في القرن السادس وأوائل السابع .

هو شريف الدين أبو جعفر يحيى بن محمد بن محمد بن محمد[2] العلوي الحسني البصري المعروف بابن أبي زيد ، نقيب

(١) الصاحب والتلاميذ غير المؤلف والفقه والعلم ، والقائد قبل صاحبه أبي حنيفة ، والإمام الغزالي .

(٢) أي أربع مرات .

البصرة : ابن نقيبها الأديب الشاعر الأخباري البارع ، الراوي الثقة . وُلد بالبصرة في خلافة أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وقرأ بها الأدب على أبي محمد بن الأحمر[1] الحلي ؛ وسمع الحديث النبوي كالذي في سنن الدارمي من أبيه أبي طالب محمد بن علي نقيب البصرة ومن غيره ؛ ووافق زمانه أعظم خليفة عباسي في العدل والسياسة والدهاء ، والحزم والقوة والتدبير وبعد الحكمة ، وهو أمير المؤمنين أبو العباس الناصر لدين الله . وقدم بغداد سنة توليه الخلافة — أعني سنة ٥٧٥ هـ ، فمدحه بقصيدة لامية يقول فيها :

وليتَ وعامُ الناسِ أحمرُ ماحلٌ
فجدتَ وجادَ النبتُ كالقشعمِ المخلْ
وكم لك من نعماءَ ليس تعدُّها
لها حاسبٌ إلا إذا أُحصيَ الرملُ[2]

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي ، وهو أحسن من [illegible] بعد ابن أبي الحديد ممن رأينا له قولا [illegible] رقيق الشعر مليح النظم ، وأجاز [illegible] هذا النقيب وهذا الخزرجي [illegible] :

فاحبس[3] على نجد أوطار وأوطانُ
آليتُ — والحرُّ لا تُخفى أليّتُه —
ألا تذوقَ بطيب النوم أجفانُ
حتى تعودَ ليالينا التي سلفت بالأبرقين وجيرانٌ كما كانوا
يا حبذا النعيم الجرعاء من نجد وحبذا روضة الخضل والبانُ

(١) كذا ورد في « مختصر المجلد الثامن من مرآة الزمان لأبي المظفر يوسف المعروف بسبط ابن الجوزي » ص ٢٨٩ » من طبعة شيكاغو سنة ١٩٠٧ ، وورد بصورة : « أبي علي بن أحمد الحلي » في « ذيل الروضتين » لأبي شامة ، مخطوط رقمه ٥٨٥٢ من دار الكتب الوطنية بباريس ورقة « ٢٠٧ — ٨ » ، ولأبي شامة على هذا السبط ، المثالب الباسة والمظفر المستنصرية لعلي بن أبي الفرج البصري ، مخطوط رقمه ٦١٤٤ ورقة ١٢٧ من دار الكتب الوطنية بباريس . (٢) وخلاصة الذهب المسبوك لعبد الرحمن الإربلي « ص ٢٠٣ » من طبعة بيروت سنة ١٨٨٥ .

(٣) في الأصل زيادة « فوصله » . وذيل تاريخ بغداد لأبي عبد الله محمد بن سعيد بن الدبيثي الواسطي ، مخطوط رقمه ٢١٣٣ ورقة ٨ من نسخة دار الكتب الوطنية بباريس .

إذا النسيم سرى مالت ذوائبه كأنها الغصن المطلول سكرانُ
فتنسم في الأغصان هينمة والحَمام على الأفنان أعوانُ
وبارق لاح والظلماء داجية والنجم في الأفق الغربي حيرانُ
هاجت تذكرني هيفاء ضاحكة على أنمٍ ومنابر هم وأحزانُ
كتمتُ حبك والأجفان تظهره
وليس للحب عند العين كتمانُ
فلو رأيت الغدر في الأحشاء نار جوى
وقد حصرت خفيقي العين غدرانُ[1]

ذكره المؤرخ المذكور في وفيات سنة ٦١٣ هـ ، ونقل قوله أبو شامة في « ذيل الروضتين » ، والإمام شمس الدين الذهبي في تاريخ الإسلام ، وقال : « وكان [illegible] له اتصال بالأدب وأيام العرب ، وله شعر رائق[2] » . [illegible] بالنقل من كتب هؤلاء ابن تغري بردي[3] . [illegible] أن وفاته كانت ببغداد في شهر رمضان من السنة [illegible] قريش ، وهي مقبرة الإمام موسى [illegible] المعروفة اليوم ببلدة الكاظمية .

والنقيب [illegible] ببغداد عشر مرة حيا كان يسكن بالبصرة [illegible] إنه مدحها منتقلا من نقابة البصرة في وزارة مؤيد الدين أبي المعالي سعيد بن علي بن أحمد الفندلوي الأنصاري الحنبلي المعروف بابن حديدة ، وكان تولى الوزارة لأمير المؤمنين الناصر لدين الله سنة ٥٨٤ هـ ؛ وأنشد هذا النقيب وزير الخليفة قصيدة من جملتها قوله :

وقائل الأنصار غير ملية لكن بنو قيلة هم الأخيار
منهم أبو أيوب حلَّ محمدٌ في داره واختاره المختار
أنا منه في النسب الصريح وأنت من
ذاك القبيل على بذاك سوار
ولقد رأيتُ عليك مثل ثيابه في دار جدك والقريب يعار
صلى الإله على النبي محمد وأتى إليه وقومك الأنصار

(١) مختصر المجلد الثامن من مرآة الزمان المذكور .

(٢) تاريخ الإسلام ، مخطوط رقمه ١٥٨١ ورقة ٢٠٩ من دار الكتب الوطنية بباريس . (٣) النجوم الزاهرة ج ٦ سنة ٦١٣ » من طبعة دار الكتب ، والمخطوط المرقوم ١٧٧٣ ورقة ٩٩ من دار الكتب الوطنية بباريس .

فلما سمعها الوزير ابن حديدة رقّ له وبكى ، وخلع عليه ووصله ، وقضى حوائجه وأنصفه من ناظر البصرة وعزله[1] . فما كان أعظمهما ذكيًا ومشكيًا ، ومستجيرًا ومجيرًا ، ونقيبًا ووزيرًا ! ونجد في الأخبار الأدبية ومجاميع الأشعار أن النقيب أبا جعفر بن أبي زيد تشرّف بالحضور في حضرة الإمام الناصر لدين الله في ليلة من الليالي ، والتجمل بمحادثته ولو قليلا ، فإن مقرب البحراني العيوني الشاعر المشهور يشير في شعره[2] إلى أن أحد أرباب دولة الناصر لدين الله المكنى بأبي علي الملقب بأبي علي المعروف بابن الدوامي ، كان سببًا في توصل النقيب شرف الدين أبي جعفر يحيى بن أبي زيد إلى الخليفة المذكور وتشرفه بالحضور . ويظهر لي أنه أبو علي الحسن ابن هبة الله بن الحسن ، وكان أحد الأعيان الفضلاء ، تولى للناصر لدين الله حجابة الحجاب ، ثم صدرية المخزن مع كوزارة الثانية مع وزارة الحرس ، ووكالة الخليفة في أمواله الخاصة ، وتوفي سنة ٦١٦[3] ...

بين يدي الناصر لدين الله أجتليه

لياليّ عنده كليلة موسى ... [illegible]

لم يكن حوله كرى ولا سمر ... بقيا الإله مثل سروري[4]

وذكره مكرر في ديوان ابن مقرب العيوني ، ففي ص ٩٧ منه ما هذا نصه : « وقال وقد اقترح عليه يحيى النقيب بن أبي الحسين بن أبي القاسم علي بن أبي العباس محمد بن أبي زيد العلوي الحسني ، وقد عرض عليه منشدًا عقيقًا أبياتًا من الشعر ، فأنشأ هذه القصيدة » ، وذكر الشارح القصيدة وفيها يقول :

جزى الله تاج الدين عني إنابة ... به تدفع الحسنى وتكفى النائبات

مشيرًا إلى تاج الدين إسماعيل النقيب أبي جعفر المذكور[5] ، وعندي أنه خلف من المذكور .

وقد قرأ كثير من الأدباء والأخباريين كتب الأدب والأخبار والنسب كالأغاني والمغازي وجمهرة النسب على الشريف أبي جعفر المذكور .

وأكثر الفضل في بيان مقالات أبي جعفر وأقواله وآرائه هو لتلميذه ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة المذكور ، فإنه حفظها في كتابه مرة في المعنى ومرة في اللفظ ، وأخرى فيهما معًا ، وضمّها بعضها إلى بعض أو اختصارها أو اقتصارها يدل على ما يسمونه بروح ذلك العصر الدينية والاجتماعية . قال ابن أبي الحديد في نقله خبر وفاة النبي (ص) واختلاف الناس وقول الحباب ابن المنذر : « نخاف أن يلي الأمر بعدكم من قتلنا أبناءهم وآباءهم وإخوانهم » ، ما هذه صورته : « قرأت هذا الخبر على أبي جعفر يحيى بن محمد العلوي الحسني (كذا) المعروف بابن أبي زيد نقيب البصرة — رحمه الله تعالى — في سنة عشر وستمائة من كتاب السقيفة لأحمد بن عبد العزيز الجوهري ، قال : لقد صدقت فراسة الحباب ، فإن الذي خافه وقع يوم الحرة ، وأخذ من الأنصار ثأر المشركين يوم بدر . ثم قال لي — رحمه الله — : ومن هذا خاف أيضًا رسول الله (ص) على ذريته وأهله ، فإنه كان عليه السلام قد وتر الناس وعلم أنه إن مات وترك ابنته وولدها سوقة ورعية تحت أيدي الولاة كانوا بعرض خطر عظيم ، فما زال يقرر لابن عمه قاعدة الأمر بعده حفظًا لدمه ودماء أهل بيته ، فإنهم إذا كانوا ولاة الأمر كانت دماؤهم أقرب إلى الصيانة والعصمة ، مما إذا كانوا سوقة تحت يد وال من غيرهم ، فلم يساعده القضاء والقدر ، وكان من الأمر ما كان ، ثم أفضى أمر ذريته إلى ما قد عرفت »[1] . وهذا يدل على أن أبا جعفر بن أبي زيد كان شيعيًا إماميًا في العقيدة ، يؤمن بالنص على خلافة علي ابن أبي طالب . ونقل عنه تلميذه ابن أبي الحديد أيضًا في أثناء شرح النهج ما يؤكد مقالته ، قال : « وسألت أبا جعفر يحيى بن محمد العلوي نقيب البصرة وقت قراءتي عليه ... وكان رحمه الله — على ما يذهب إليه من مذهب العلوية — منصفًا وافر العقل ! فقلت : من يعني (علي) بن

(١) الفخري لابن الطقطقي ، ص ٣٣٢ — ٣٣٤ من طبعة المطبعة الرحمانية ١٩٢٧ . (٢) ص ٤٤ من طبعة الهند . (٣) ذيل تاريخ بغداد لابن الدبيثي ، مخطوط ورقة ٢٩٧ ، وص ١٣٣ من نسختنا الخطية . (٤) القطعة المذكورة ورقة ٤ . (٥) الديوان ص ٩٦ .

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، ٤ : ١٣٣ .

أبي طالب) عليه السلام بقوله : « كانت أثرة شحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين » ؟ ومن القوم الذين عناهم الأسدي بقوله : كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به . هل المراد يوم السقيفة أو يوم الشورى ؟ فقال : يوم السقيفة . فقلت : إن نفسي لا تسامحني أن أنسب إلى الصحابة عصيان رسول الله — ص — ودفع النص . فقال : وأنا فلا تسامحني أيضاً نفسي أن أنسب الرسول — ص — إلى إهمال أمر الإمامة ، وأن يترك الناس فوضى سدى مهملين ، وقد كان لا يغيب عن المدينة إلا ويؤمر عليها أميراً ، وهو حي ليس بالبعيد ، فكيف لا يؤمر وهو ميت . . »[1].

وكان لابد في كتابه يصف النقيب أبا جعفر بالإنصاف ، فهو حيث استعظم مدح علي بن أبي طالب الرسول [illegible] استعظام المتحجر ، قال : « سألت النقيب [illegible] — رحمه الله — وكان منصفاً بعيداً عن الهوى [illegible] عن هذا الموضع فقلت له : [illegible] وخطبهم ، [illegible] قوم من عظم [illegible] تعظيم هذا الرجل (ع) ولا [illegible][2] إقدام السؤال [illegible] بحيل النقيب [illegible] ليوافق الأمور الحال لشكوك الأحداث .

وإذا كان لكل مؤرخ قول أو حكم لم يسعنا إلا وصف النقيب أبي جعفر بالإنصاف والاعتدال والاقتصاد في أحكام الأقوال ، قال ابن أبي الحديد بعد نقله أخبار الفترة بين الرسول — ص — وعلي بن أبي طالب وأحوالها : « وكان النقيب أبو جعفر — رحمه الله — غزير العلم ، صحيح العقل منصفاً في الجدال غير متعصب للمذهب ، وإنه

(١) المرجع المذكور ، ٢ : ٢٢٩ — ٧٣ وتلخيص كلامه هنا ، وهو من أحسن ما قاله الشيعة الإمامية للاستدلال على النص في الإمامة ومنع الإهمال والإغفال . والفرق بين كلام أبي جعفر النقيب وغيره من الإمامية أنه يطلق الأمور تطلقاً اجتماعياً ووضعياً حسب القوم والإرادة والطباع والمراكز والأخلاق والرجال والديانات والمذاهب . وهذا كله الأسلوب الحديث المحقق ، ووردت لها كلام يشبهه في ٢ : ١١٥ من الكتاب .

(٢) المرجع المذكور ٢ : ٣٢٠ .

كان علوياً ، وكان يعترف بفضائل الصحابة ويثني على الشيخين ويقول : إنهما مهّدا دين الإسلام وأرسيا قواعده ، ولقد كان شديد الاضطراب في حياة رسول الله — ص — وإنما مهّداه بما تيسر للعرب من الفتوح والغنائم في دولتهما . وكان يقول في عثمان : إن الدولة في أيامه كانت على إقبالها وعلو جدها ، بل كانت الفتوح في أيامه أكثر ، والغنائم أعظم ، لولا أنه لم يراع ناموس الشيخين ولم يستطع أن يسلك مسلكهما ، وكان مستضعفاً[1] في أصل القاعدة ، مغلوباً عليه وكثير الحب لأهله ، وأتيح له من مروان وزير سوء أفسد القلوب عليه ، وحمل الناس على خلعه وقتله . وكان أبو جعفر — رح — لا يجحد الفاضل فضله ... وكان لا يعتقد في الصحابة ما يعتقده أكثر الإمامية فيهم ، ويسفه رأي من [illegible] إلى النفاق والتكفير ، وكان يقول : حكمهم [illegible] في بعض الأعمال وخالف الأمر ، [illegible] آخذه وإن شاء غفر له . قلت له [illegible] أهل الجنة ؟ فقال : أي والله [illegible] في ذلك أصلاً ولا أشك في [illegible] رسول الله — ص — وصحة عقيدتهما . فقلت له : فعثمان ؟ قال : وكذلك عثمان . ثم قال : رحم الله عثمان ، وهل كان إلا واحداً منا ، وغصناً من شجرة عبد مناف . ولكن أهله كدّروه علينا وأوقعوا العداوة والبغضاء بينه وبيننا »[2].

ونحن قد عجبنا من قول ابن أبي الحديد في أبي جعفر : « ولم يكن إمامي المذهب ، ولا كان يبرأ من السلف ، ولا يرتضي قول المسرفين من الشيعة ، ولكنه كلام أجراه على لسانه البحث والجدل بيني وبينه ؛ على أن العلوي لو كان كرامياً لا بد أن يكون عنده نوع من تعصب وميل على الصحابة وإن قل »[3] . فقد نقلنا قوله فيه : « وكان

(١) في المطبوع « متضعفاً » وهو تشكيل النقاد على معتقده خيفاً وتحتها منسوبة إلى المذهب ، والاستضعاف أحرى منهما هنا .

(٢) شرح نهج البلاغة ، ٢ : ٥٧٦ — ٤٠٧ .

(٣) ولك ، ٣ : ١١٤٠ .

لا يعتقد فى الصحابة ما يعتقده أكثر الإمامية فيهم » . فهو لم يكن من الإمامية المغالين الإشادة بأرفه والحكمة باطلة ! ألا ترى أنك لا تقول فى وصف عمران بن حطان الخارجى القعدى : « كان لا يعتقد اعتقاد النبطية » لبروده وخروجه من مقتضى الموضوع .

أمّا الكلام الذى نقل قبولا منه شيخنا العلامة الأستاذ أحمد أمين بك فى الموضع المذكور من ضحى الإسلام لم يكن من كلام أبى جعفر النقيب بل كان من كلام بعض الزيدية ، والدليل على ذلك قوله : « قال أبو جعفر — رح — قد كنت منذ أيام علقت بخطى كلاماً وجدته لبعض الزيدية فى هذا المعنى نقضاً ورداً على أبى المعالى الجوينى فيما اختاره لنفسه من هذا الرأى ، وأنا أخرجه إليك لأستغنى بتأمله عن الحديث على ما قاله هذا الفقيه ، فإنى أجد ألماً يمنعنى من الإطالة فى الحديث لا سيما إذا خرج مخرج الجدل ومقاومة الخصوم . ثم أخرج من بين كتب [illegible] فى ذلك المجلس واستمعه الحاضرون ، قال [illegible] : لولا أن الله تعالى أوجب معاداة أعدائه كما أوجب [illegible]

وهذا يثبت أن النقيب أبا جعفر [illegible] الثقات الأثبات وصادق الرواة ، لأنه كان يرجع إلى أصول مدونة وكتب منسقة وتقاييد محررة ، على القدماء كانوا يقولون : حدثنا فلان وفلان أو حدثنا ملاءً أو تقول أو يعتمد ، أو حكى عن فلان . وربما شدح به المحدثون الصادقون أنهم كانوا لا يحدثون إلا من كتاب ! وكذلك فعل النقيب أبو جعفر فى إخراج قصيدة أبى القاسم على بن الحسين المغربى الوزير الأديب الكبير الشاعر المقتدر ! وهى قصيدة نادرة فى موضوعها تدل على بقيّة من العصبيّة العربية الجاهلية العمياء فى القرن الرابع وأوائل الخامس للهجرة ، وهو عهد انحلال المروءة واختلاف المذاهب اختلافاً إيجابياً مبنياً على النقض والردّ والمناظرات والمقامات ، قال ابن أبى الحديد : « وحدثنى أبو جعفر يحيى بن محمد بن أبى زيد[2] العلوى نقيب البصرة ... »[3] . وذكر قدوم أبى القاسم المغربى من مصر إلى بغداد واستكتاب شرف الدولة أبى على بن بويه له وهو يومئذ سلطان الحضرة وأمير الأمراء ، والقادر بالله خليفة . ثم قال : « قال أبو جعفر : وكان أبو القاسم المغربى ينتسب فى الأزد ويتعصب لقحطان على عدنان وللأنصار على قريش ، وكان غالياً فى ذلك مع تشيعه ... فذكر أن حصل بيد القادر كتاب بخطه شبه مجموع قد جمعه من خطه وشعره وكلامه ... فوجد القادر فى ذلك المجموع قصيدة من شعره فيها تعصب شديد للأنصار على المهاجرين حتى خرج إلى نوع من الإلحاد والزندقة ، وفيها تصريح بالرفض مع ذلك ... . وكنت رغبة أسأل النقيب أبا جعفر عن القصيدة وهو يدافعنى بها حتى أملاها علىّ بعد حين ... »[1] . وأنا أقطع أن الإملاء لتلك القصيدة كان من كتاب على عادة هذا الشريف العلامة الحصيف [illegible] عند الأمور .

[illegible] الذوق فى الشعر ودقيق الإحساس بلطائفه [illegible] فيه ، قال ابن أبى الحديد : [illegible] محمد بن أبى زيد العلوى البصرى [illegible] امرئ القيس ، والشعر أبى [illegible] ديوان النابغة قصيدته التى مدح بها النعمان ابن المنذر وذكر مرضه ويعتذر إليه عما كان اتهم به وقذفه به أعداؤه وأولها :

كتمتك ليلاً بالجمومين ساهراً

وهمين همّاً مستكناً وظاهراً[2] »

وذكر القصيدة إلا البيت الأخير منها ، قال : « فقال أبو جعفر — رح — يرجز ويطربه ثم قال : والله لو جرّدت هذه بشعر البحترى لكانت تخرج بسهولتها وسلاسة ألفاظها وما عليها من الديباجة والرونق ؟ من يقول : « إن امرأ القيس وزهيراً أشعر من هذا ؟ كانوا فى عليها كونى[3] » . وكان للنقيب أبى جعفر علم بجوهر القصيد ومعرفة لبنى علىّ بن أبى طالب ، حتى لقد قال ابن أبى الحديد فى ذكره الأشعار الواردة فى الآل : « وسمعت

(١) ذلك ٤ : ١ ٤٥٨ – ٤٥٩ . (٢) فى الأصل المطبوع « ابن زيد » وهو غلط . (٣) شرح نهج البلاغة ٢ : ٤٦٢ .

(١) المرجع المتقدم ٤ : ٢٠٠ . (٢) مجموع الدواوين ص ٨٠ من طبعة مطبعة المعارف . (٣) المرجع المذكور ٤ : ٥٧٨ – ٥٧٩ .

الزمام

لحضرة صاحب العزة الأستاذ محمد رمزي بك

الزمام كلمة عربية لها معان كثيرة ، وأنسبها لموضوعنا هذا أن « زمام الأمر قوامه وما يضبط به » ، أى تحديده على وجه الدقة ، وبيان مقاديره وتوضيح معالمه ، وهذا ما تقصد إليه الحكومة من الزمام ، إذ تضبط الأرض وتحددها ، وتثبت ذلك في دفاترها الرسمية للرجوع إليه عند الحاجة .

وكلمة الزمام حديثة الاستعمال في الاصطلاحات المساحية في مصر ، إذ أنها لم تستعمل إلا من سنة ١٨٩٩ ، وهي السنة التي بدئ فيها بعملية فك الزمام الحديثة .

وكانت الدفاتر المحصور فيها الزمام لغاية سنة ١٨٩٨ [?] هي الدفاتر التي تسمى المكلفات في الدواوين . فلما أنشئت مصلحة المساحة بقرار من مجلس النظار [illegible] ١٨٩٨ [?] ، قامت هذه المصلحة بعملية [illegible] القطر المصري في المدة بين سنة ١٨٩٩ وسنة ١٩٠٦ [?] [illegible] الأراضي من جديد في خرائط وحصرها في دفاتر مساحة جديدة ؛ ومن ذلك الوقت أصبحت كلمة الزمام تطلق على ما هو مثبت من الأراضي في تلك الدفاتر ، وهذا يناسب ما شرحناه من معنى كلمة الزمام .

ويتكون زمام كل ناحية من مجموع الأراضي المحصورة في دفتر مساحتها ، وكل زمام يتكون من ثلاثة أنواع من الأراضي وهي : (١) الأراضي ملك الأهالي المربوط عليها الأموال (٢) الأراضي ملك الحكومة (٣) الأراضي المخصصة للمنافع العمومية على اختلاف أنواعها ، ويقال كذلك زمام الحوض أي مجموع مساحة أطيانه .

فك الزمام

فك الزمام كلمة عربية حديثة الاستعمال في مصر ، المقصود منها حل قيد المساحة القديمة للأراضي المقيدة في دفاتر المكلفات ، وإجراء عملية مساحة جديدة على جميع الأراضي المصرية بالطرق الهندسية الحديثة ، مع تحديد ومساحة ما في حيازة كل مالك أرض في كل قرية ، وإظهار [illegible] المحرر في وضع يد كل مالك ، وذلك [illegible] الأراضي [illegible] المساواة .

أما [illegible] التي ورد فيها كلمة « فك [illegible] » [illegible] هي : الأمر العالي الصادر في ٢٢ [illegible] ١٢٨٠ هـ = ١٨٦٤ م ، وبأن « لا يفك [illegible] » [illegible] ، وكذلك الأمر العالي الصادر في ٢٨ صفر سنة ١٢٨٣ هـ = ١٨٦٦ م بالتصريح « بفك زمامه » أى إذن عند الاقتضاء بغير توقف على صدور أمر عال . ولما أنشئت مصلحة المساحة في سنة ١٨٩٨ ، كما

النفيس لما زيد يحيى بن أبي زيد العلوي الحسني [?] بقوله : كأن أبيات أبي تمام في محمد بن حميد الطائي ما قيلت إلا في الحسين هــا

وقد كان فوت الموت سهلاً فرده
إليه الحفاظ المر والخلق الوعر[1]

وذكر سائر الأبيات . وأمثال هذه النقول الملائمة كثيرة لا يمكننا سردها في هذا المكان . على أننا نذكر أمراً مهماً في تاريخنا الإسلامي ، هو أن نعلم أن الثقافة بأنواعها وضروبها عند الأمة والشعبية [?] [illegible] تتطور وتتحول وتتبدل بحسب أهواء الخلفاء والسلاطين والملوك[1] ، وكثير من العلماء والأدباء والفقهاء والمؤلفين كانوا يصنعون ما عندهم بصبغة حكام زمانهم ، مما يثبت أن الدال [?] والحاكم السلطان كانوا مؤثراً عظيماً في مناحي الثقافة وألوانها وأطوارها . وإذا وجدنا في هذا العهد ما نسميه حرية البحث والإنصاف في الجدال والاعتدال في المعتقد ، والتسامح بين الطوائف بعضها على بعض ، وجب أن نعزو أكثر ذلك إلى عهد الإمام الخليفة الناصر لدين الله العباسي .

(بغداد) دكتور مصطفى جواد

(١) [illegible]

(١) ومن هذا قولهم « الناس على دين ملوكهم »

صور أدبية :

نفـــــاق . . .

بين أرباب الأدب جماعة منافقون يحلو لهم أن يظهروا على ألسنتهم غير ما تسر قلوبهم . والنفاق المجرد — بمعنى مخالفة الظاهر للباطن — لا يصدق ذاته خيراً أو شراً ؛ وإنما ينصاب إلى إحدى هاتين الخاصتين بالنظر إلى بواعثه وإلى مقتضياته جميعاً . ومن ثم كان النفاق في الدين شراً ما بعده شر ؛ إذ باعثه الاستهزاء بأمر الله ، وإيقاع الكيد للمؤمنين ، وتلمس الأذى لهم ، ونتيجته الكفر في أشنع صوره ، مقروناً إليه الكذب والخديعة وإبلاغ المكروه لكل مؤمن ، إلا أن يحمى الله من تلك أولياءه .

والنفاق مع الجليس أبلغ في الشر من النفاق في معاملة الناس ، متى اتصل بهذا الأخير شرط إرادة الكيد وقصد الإضرار والأذى . ويقدر تفاوت ... ملابسته للبواعث والنتائج تتفاوت ... قد تشاهد النفاق الذي يحمل ... من النفاق ... إلخ ...

إثمه — كأن يظهر المسرة لطفل بإحرازه انتصاراً تافهاً — مثلاً — وهو خلي النفس من كل ما يُظهر ، سوى قصده مسرة هذا الصغير ، وابتعاث دواعي النشاط والهمة عنده .

بل ما بالنا نذهب بعيداً والكذب نفسه أحوال يتجاوز فيها حد الحرمة إلى مرتبة الجواز أو الوجوب ، كما تشير إلى ذلك قوانين الأخلاق وتنص قواعد الشرع !

ونعود إلى نفاق الأدباء فنقول : إنهم أقدر من غيرهم على ولوج هذا الباب بما أوتوه من بسطة في اللسان ، وقدرة على التأثر والانفعال ، وإحاطة تامة بوجوه التصرف في مناحي التفكير والتعبير . وكما يرتفع الأديب على سائر الناس بقدرته على إبراز المعاني المكنونة وإبدائه التعبير الموحي عن الخاطر المضمر ، يرتفع عليهم أيضاً بقدرته ... في ... الأمثال والمطارات أو التعسف منها ؛ ... قدرته على ... من طبيعة جوهرها ... وسلامته في ... الجلد الذي ينافق فيه : فيظهر معنى ... ذلاقة لسانه من منطوق الآراء ... من مفهومها .

ذكرنا ، أصدر مديرها تعليمات إلى لجان المساحة تحت عنوان أعمال لجان مساحة فك الزمام ، وأن من واجباتهم فك زمام الأراضي الداخلة في حدود كل بلدة على حدتها .

ومن ذلك الوقت أصبحت كلمة « فك الزمام » مستعملة عند إعادة عملية مساحة أطيان أي بلدة أو مديرية في أي وقت .

خارج الزمام

خارج الزمام هي كذلك كلمة عربية حديثة الاستعمال في مصر ، تطلق على جميع الأراضي ملك الحكومة التي لم يسبق حصرها في دفاتر المساحة السابقة ، ولم تدخل في زمام البلاد قبل إنشاء مصلحة المساحة .

وتلك الأراضي هي المعروفة بأراضي السباخ والملاح ، والأراضي الرملية والبرك المجاورة للصحراء ، وحواجر الجبال ، وكذلك أراضي البراري والمستنقعات القريبة من شواطئ البحيرات .

وأقدم مصدر رسمي ذكر فيه كلمة « خارج الزمام » ، هو المادة الرابعة من الأمر العالي الصادر في ٣ فبراير سنة ١٨٩٢ ، الخاص بربط الضرائب على الأطيان التي تبيعها الحكومة .

ولما قامت مصلحة المساحة بعملية فك الزمام السابق ذكرها ، حصرت جميع الأراضي التي ذكرنا أنواعها في خرائط مساحة البلاد وفي دفاترها ، وأضافتها إلى زمام البلاد المجاورة لها باسم أراضي البرى .

وبهذه العملية لم يبق اليوم من الأراضي القابلة للإصلاح والزراعة في مصر أرض يقال لها خارج الزمام ، لأنها حصرت كلها في دفاتر مساحة النواحي في أحواض خاصة بها .

محمد رمزي

ولا يعنينا هذا التفصيل عن ضرب المثل لتبين فيه حقيقة ما ذكرنا ... ولكن نموذجنا هنا ومضرب مثلنا شاعراً من أرداف الملوك وأحلاس قصور الخلفاء والسلاطين ؛ إذ التماس النفاق عند مثله أقرب ، وتطلب الصورة الكاملة من ذلك في شعره أيسر على من أراد ..

وليكن شاعرنا هذا أبو عبادة البحترى نديم المتوكل ونجيّ الفتح ، وربيب نعم الأقيال من آل طاهر وآل حميد وآل المدبر .

ولست أفرد البحترى بالكلام لأنه أكثر عندى نفاقاً من غيره ، بل لأنى وجدت المثل الذى أتمثله كاملا عنده فى مرثية له — من أوائل شعره — صور فيها النقمة بصورة النعمة ، وألبس الخطب الباكى ثوب الفكاهة البهيج ..

هذا أبو القاسم بن حميد الطوسى قد جلس مجلس العزاء فى ابنة له متوفاة ؛ وبان على وجهه أثر من الجزع على فقدها ، ورق قلبه وفاضت من حر الأسى فى ما يشعه من فراقها . وهذا البحترى يقدم تعزيته ومواساته فينشد :

ظلم الدهر فيكمو وأساء   فعزاء بنى حميد عزاء

ولا يسلك البحترى فى هذه المرثية سبيل الشعراء من أصحاب المراثى ؛ بل هو يأخذ فيها بأسلوب جديد من أساليب التعزية فيه تكلف وفيه نفاق .. إنه يتم فى تعزيته لأبى القاسم أمر النسوة جميعاً ، ويهون عنده من شأنهن تهويناً بالغاً ، ويتظاهر بعظم كراهيتهن تظاهراً تخاله معه مسروراً لفقد هذه الابنة ، وأنه لم يأت معزياً كسائر الناس ، وإنما جاء ليقنع أباها الثاكل بأحقيته فى إظهار هذا الشعور ، وليحمله على اعتناق مذهبه فى ذلك أعنف الحمل . ولعمرى إن هذا لهو التكلف المقيت فى العاطفة وفى الفكرة وفى الأسلوب جميعاً ، والنفاق المفضوح فى إظهار شعور عام نحو النساء ، ليس فى قلب الشاعر — ولا فى قلب عاقل أديب — منه أثارة ...

ولنأخذ هنا باستعراض جانب من القصيدة تنم على صورة خطى تفكير البحترى فيها .. إنه يبادر بعد المطلع بالإشارة إلى هذه الحروب التى رفعت لآل حميد فى البطولة ذكراً خالداً ، والتى أجزرتهم إلى جانب ذلك ضحايا الأمجاد فى ساحات الجلاد ، وخصت من السيف دماءهم التى تطيح به رءوس (رجالهم) فى ساحات الشرف أكرم مطاح :

أسرف السيف فيكمو وهو الدا   ء الذى لا يزال يعيى الدواء
وانتحى القتل فيكمو فبكينا   بدماء الدموع تلك الدماء

وإذا كان هذا شأن آل حميد ، أسرة القادة السادة والساقية القادة ، فماذا يكون قدر النساء عندهم ؟ أولئك اللواتى لا ينهضن فى حرب ، ولا يقمن بعبء القتال فى معترك !

أتبكّى من لا ينازل بالسيـ   ـف مشيحاً ولا يهز اللواء ؟!
والفتى من رأى القبور لما طا   ف به من بناته أكفاء

شعر البحترى هذا فى شبه استقبال ، حتى ليوهم التابع أنه صادق فى عقد الاستهانة بقدر المرأة ، محق فيما يعرضه من ضعف الشأن وقلة الغناء ؛ وهو يدعم حجته بكل دليل ، ويطيل حواره ، ويستشهد أنبياءه :

لسن للعهد [illegible]   ن التلاد الأعلى العداء
[illegible]   [illegible] ، بل حية ولباء
وتشكى مبهل اللذ فيه   ن وقد أعطى الأديم حباء
وشقيق بن فاتك حذر العا   ر عليهن فارق الدهناء

أدلة تلك صادقة وشواهد ناطقة ، كان ينبغى لابن حميد أن يجيل فيها عقله ، ثم يقسو على الخضوع لها عاطفته ؛ وإن هو لم يقنع بها فهناك أمثلة أخرى من صحيح الأنبياء ، لا يشك فى صدق خبرها وعظم دلالتها :

وعلى غيرهن أحزن يعقو   ب وقد جاءه بنوه عشاء !
وشعيب من أجلهن رأى الوحـ   ـدة ضعفاً فاستأجر الأنبياء
واستزل الشيطان آدم فى الجنـ   ـة لما أغرى به حواء ...

فإذا لم يكفكف أبو القاسم بعد كل هذا من عبرته ، ثم يعتصم من جزعه بالصبر ، ويلطف من حر أساه برد التأسى ... فما هو إلا العاجز المغلوب على أمره ، شأن كل رجل تذرى عيناه على امرأة دمعة :

ولعمرى ما العجز عندى إلا   أن تبيت الرجال تبكى النساء ؟!

وهكذا ينافق البحتري في إدلال فكرته الزائفة، ويصطنع أسلوباً محبباً في التعزية مخاطباً به عقل الرجل في موضع كان ينبغي فيه أن يخاطب عاطفته؛ وليس البحتري بالذي يجهل الفرق بين خطاب العقل وخطاب العاطفة.

ولقد كان يجوز له أن يلقي بهذا الحديث عن المرأة في مجلس تناظر يدور فيه البحث حول شأنها ومبلغ أهميتها في الحياة، فذلك مقام تصطرع فيه العقول بسلاح من الحجة والمنطق، وتستند معه إلى شواهد من التاريخ تثبت رأيها وتدعم وجهة نظرها. أما في مواقف العزاء فالأحرى بأن يكون الخطاب للعاطفة المتطرفة وللوجدان الملتهب، لأن من عذاب يفيض الحزن، وفي قرارتها يصطخب الأسى ويثور. والبحتري في نفاقه هذا ينافق عن معرفة، ويعلل عبارته وربما ليست من صميم نفسه.

ولسنا لا نحفل بهذا كل مرة في باب النفاق؟ إذ المرثي وإن بالغ في إظهار التحزن [...] ذلك أن المرثي والسامع جميعاً [...] ويفهمان أنه لا يزيد في أكثر أمره [...] بالحزن تخفيفاً منه ومجاملة وإسعاداً، فليس ثمة في عبارته أو في شعوره وجه لمخادعة منه أو نفاق. أما مثل حجج البحتري هذه القوية فلا يكون إلا من توليد الفكر المزيف والمغالطة المكشوفة، وهو لا يعترف لصاحبه في هذا المقام بالحزن ثم يحاول تخفيفه عنه بمشاركته فيه مرة، والتهوين أخرى، كما يفعل أصحاب الرثاء عادة؛ وإنما هو ينكر عليه هذا الحزن أصلاً، ويصطنع الجد كله في إنكاره، موهماً إياه أن يثبت رأيه وتلك عقيدته في المرأة، وأن ليس عليه إلا أن يجاريه فيها فينفض عن نفسه غبار الحزن! والنظرية مع كل هذا فاسدة مموهة، والأدلة الناقضة لها أكثر عدداً وأقوى. إذ الحق أن للبنت مهمتها العظمى في الحياة، ومكانتها الجليلة في خدمة المجتمع، وهي ليست تقل في ذلك عن الرجل شأناً.

أما وأد البنات — التي أشار إليه البحتري — فليس بالفضيلة التي يحث عليها أو يؤتسى بها، وأشعار شقيق ومهلهل وغيرهما من الجاهليين حوادث فردية لا تقيم مبدأ ولا تقرر قاعدة. وحزن يعقوب على يوسف لا ينتقص كراهيته للبنات لو أن الله رزقه منهن نسلاً. واستغفار شعيب لموسى لم يكن مما يقلل من قيمة بنتيه عنده. وأما حديث آدم وحواء فلا يصيح به عاقل من في قلبه ذرة من الإيمان بقضاء الله وقدره.

والبحتري نفسه — وقد عرفت مقالته في ابنة الحميدي — هو الذي رثى (زرزجا)... من قصيدة فيقول:

وروّع بي في زرزج أن يومه ... تعجل لم يمهل ولم يتنظر
فمن كبد لم تعتقل الرزية ... وقلب إلى ذكراه لم يتفطر
عليك أبا العباس الصبر طائعاً ... فإن لم تجده طائعاً فتصبر
ولا عار أن يبراق دمع فإننا ... رجحنا لرقّاء الدمع بعد التحدر

ولكن من زرزج هذا؟ إنه غلام أبي العباس بن بسطام وساقيه، وواحد من صغار الوصفاء في بيته... على كثرتهم! [...] ونتساءل: ما مقصد البحتري من هذا [...] لابنة الحميدي؟ وما غايته من هذه المغالطة المنطقية؟ أو ليس ذلك صورة من صور النفاق؟! — إنه رثى [...] إلى نسبة أبي القاسم وتخفيف لوعته؛ ثم لعله يجني من وراء ذلك عطفه، أو يقطف من ثمرات ماله وجاهه؛ وبعض هذه أو كلها أغراض لا تنتظر في إنكارها على الشاعر الذي يكتسب بشعره، ويتدرج في أعطافه بمثل تلك البيئة التي نشأ وعاش فيها البحتري. فنفاق الشاعر هنا خال من سوء البواعث ووضاعة الهوى إلى الحد الذي يعفيه من أكثر ما يتوجه إلى المنافق من لوم، إنه — مجرد النفاق — الذي أشرنا إليه في أول الكلام.

على أن هنالك صوراً أخرى من نفاق الأدباء تقترن من سوء البواعث أو سوء النتيجة بما يضعها في مصاف الرذائل البغيضة؛ وإن كثرة الأمثلة على هذا النوع الثاني لتثنينا عن محاولة الكلام فيه، وتتبع صوره بعد أن عرضنا لصوره، فلنقتصر من ثم على ما ذكرناه.

(مرجا) محمود عزت عرفة

الكتب الجديدة :

دراسات عن مقدمة ابن خلدون (١)

للأستاذ ساطع الحصري

ابن خلدون شخصية فذة في تاريخ المسلمين ، بل في تاريخ العالم ، سبق المفكرين جميعاً في خلق «علم الاجتماع» و«فلسفة التاريخ» ؛ ذو عقل مفكر سما عن التقليد ، وطمح إلى الابتداع فوفق فيه كل التوفيق ؛ قرأ كتب التاريخ ، وشاهد أحداث زمانه ، وسلط عليها عقله يمحصها ويربط بين المتشابهات ، ويستخرج منها قواعد كلية رأى أنها قوانين اجتماعية طبيعية لا تتخلف كقوانين الطبيعة في الضوء والحرارة ، من عرفها سار وفقها وفاز ، ومن خالفها خذل ودمر ، وكان ذلك [illegible]

ولكنه — مع الأسف [illegible] الأمم الإسلامية — مدة [illegible] والدول [illegible] مستحكم ، لم تنل مقدمته ما كانت تستحق من بحث ودرس وتمحيص ولا كان ؛ كما جاءت الأمم الأوربية في نهضتها ، فأعجبه علماؤها اتجاه ابن خلدون في بحثه ، وأخذوا مادتهم من الغرب ، كما أخذ ابن خلدون مادته من الشرق ، ثم توسعوا في بحثهم ، وترجموا المقدمة إلى لغتهم وعلقوا عليها يستفيدون منها ، ويبينون خطأ بعض ما جاء فيها ، ويلفتون النظر إلى محاسنها ، ويكملون بنيان علم الاجتماع بما استكشف من قوانين ، حتى وصل هذا العلم إلى درجة من النضوج نحن بها لا نعرفه ، وقد كان فيها أستاذنا ابن خلدون أستاذه ومبتكره . ولم نوله حقه من الدرس والإشادة ، كما وفاه حقه أساتذة الغرب ، فنشروا مقدمته خيراً مما نشرنا ، وترجموها إلى لغتهم ، وعلقوا عليها التعليقات البديعة العميقة ؛ ونحن لمَّا نعنَ بإبرازها في شكل صحيح ، فطبعاتنا مملوءة بالأغلاط ، ومملوءة بكثير من مواضع النقص . ولا ندري متى يأتي الزمان الذي نلتفت فيه إلى «المقدمة» فننشرها نشراً علمياً صحيحاً ، ونستفيد مما وصل إليه علم الاجتماع الحديث ، فنبني بناء عليه على تاريخ الشرق وأحداثه ، ونرسم الخطط المستقبلة ، فنحيي ابن خلدون في بلده كما حيي خارج بلده .

ومن البشائر الطيبة أن نرى الأستاذ «ساطع الحصري» يوجه عنايته إلى ابن خلدون وآثاره ، ويعكف على دراسته في صبر وأناة وعمق ، وقد بلغ من إعجابه به وحبه له أن سمى ابنه «خلدون» ، وتكنى هو (بأبي خلدون) [illegible] على ما كتب عن ابن خلدون في اللغات المختلفة وترجمة المقدمة والتعليقات عليها ، وقارن بين الباحثين الأولين في علم الاجتماع [illegible] ابن خلدون ، ثم طلع علينا بهذا السفر الأول .

[illegible] موقف ابن خلدون من المؤرخين ، [illegible] القديمة ولغتها ، ومكانة المقدمة في فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ؛ ويقارن بين ابن خلدون وفيكو ، ذلك الكاتب الإيطالي الذي نسب إليه خلق علم الاجتماع ، ويلخص وجهة نظره ، ويوازن بينها وبين أبحاث ابن خلدون ؛ وكذلك يقارن بين ابن خلدون ومونتسكيو ، ذلك الكاتب الفرنسي الشهير ؛ ويخرج من ذلك كله إلى رفعة مقام ابن خلدون من مقاميهما ، وأسبقيته في تأسيس علم الاجتماع منهما . ويعرض في القسم الثالث لآراء ابن خلدون ونظرياته في موضوع التاريخ ومهمة المؤرخ ، وفي طبيعة الاجتماع والقسر الاجتماعي ، والتقليد وطبائع الأمم ، ونظرية العصبية ، والخط والكتابة ؛ وفي كل ذلك يقارن بين ما عرضه ابن خلدون وما عرضه غيره من علماء الاجتماع المحدثين — وبذلك ينتهي هذا الجزء في ٣٢٢ صفحة . ويَعِدُ — ونرجو أن ينجز وعده — أن سينشر بحوثه عن الدولة في علم

(١) طبع هذا الكتاب في مطبعة الكشاف ببيروت ، ويطلب في مصر من مجلة الرسالة .

ابن خلدون ، وآرائه في علم النفس والتربية ، ونظرية التطور ، وآرائه في الحروب ، ونظرياته في المذاهب الاجتماعية وفي الدين واللغة والأدب وفي الكتب العربية .

والأستاذ ساطع الحصري في هذا الجزء الذي قرأته ممتاز بكل ما امتاز به ابن خلدون وسلامة منطقه وعمق تفكيره واستقصاء بحثه ؛ وعلماء الغرب في جودة العرض وجمع الشواهد وتحليل النصوص ، والصبر على جمع الوثائق والمستندات .

وقد انفرد الأستاذ باستعمال مصطلحات جديدة لبعض الألفاظ الأفرنجية قد نرى أنه ينقصها الصقل ، كترجمته Rationalism بالتفكير العقلاني ، و Scholastique بالتفكير المدرسي ، و Positivism بالفلسفة الإيجابية — ومثل التفكير الكتابي ، و Races بالعروق البشرية ، و Quantités بالسلطة التعصبية الخ . وقد وقفت طويلا في كلامه على أنه القديمة عند رأيه في معنى « العرب » ، فالأستاذ يرى أن ابن خلدون يريد بكلمة « العرب » في الفصول التي عقدها ابن خلدون من أنهم لا يتغلبون إلا على البسائط ، وأنهم لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية الخ ، إنما يريد بهم البدو والأعراب ، ولا يريد من عنصر من العرب ، واستشهد على ذلك بجملة استشهادات قوية . وقد رجعت إلى هذه الفصول في المقدمة فقرأتها وأمعنت ، فرأيت أن الأستاذ محق في هذا التفسير في بعض المواضع دون بعض ؛ فابن خلدون يستشهد مثلا في هذه الفصول بقول المتنبي : وليس هؤلاء بدواء ، ومثل ذلك كثير . فالذي أرى أن معنى العرب في ذهن ابن خلدون لم يكن محدودا ، فأحيانا يستعمله في معنى البدو والأعراب كما يفسره الأستاذ ، وأحيانا يستعمله في المتحضرين كما في هذا الموضع الذي أشرت إليه ، وكما في فصل أن العرب أبعد الناس عن الصنائع ، وفي فصل أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم .

لسنا نريد أن نقر ابن خلدون على رأيه ، فقد عرضنا في نقد الإسلام وعمله لبعض خطئه في هذا الباب ، ولكن الموضوع الآن ما الذي يريده ابن خلدون بكلمة العرب في هذه الأبواب ؟ يرى الأستاذ أنه يريد البدو والأعراب ؛ ونرى أنه لم يستعمل كلمة العرب استعمالا محدد المعنى ، فهو تارة يستعملها في البدو ، وتارة يستعملها فيما يشمل البدو والحضر ، وتارة يستعملها في الجنس متطوراً من بداوته إلى حضارته .

وعلى كل فالكتاب يستحق الإعجاب وحسن التقدير ، ويشجعنا على أن نأمل منه المزيد في إتمام أبحاثه ، ونرجو أن تنقشع هذه الحرب التي قترت الورق أيضا فيما قترت ، فيكون أثرها واضحا في ورق هذا الكتاب وطبعه .

وفي اعتقادي أن الكتاب سيفتح فتحا جديدا في توجيه النظر إلى العناية بابن خلدون ، وخاصة مقدمته ، فتتوالى بين رجال العربية وأدبائها وكتابها الكتب النافعة في هذا الباب بعد هذا الكتاب ، والله الموفق .

أحمد أمين

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر شارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر —